



مجلّة ثقافيّة تصدر عن مَجْمَع اللّغة العربيّة الأردنيّ

العدد الثّاني ١٤٤٢هـ-٢٠٢١م

شــروط النّـشر

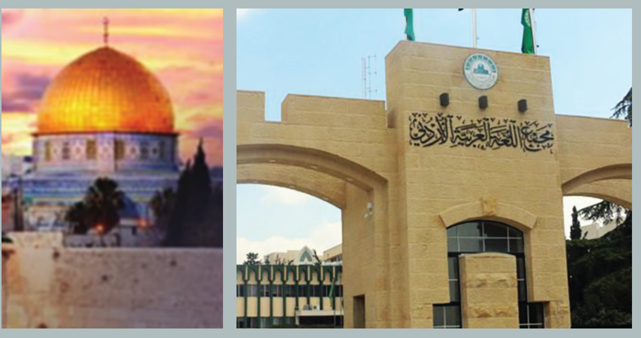
- ١- أنْ لا تزيد المشارَكة على عشر صفحات، بواقع (٢٥٠٠) كلمة، وأن تكون مصفوفةً إلكترونيّاً.
- ٢- أنْ يُكْتَبَ عنوانُ المشاركة، ونبذة عن السّيرة الذّاتيّة للكاتب.
- ٣- أنْ لا تكون المشاركة منشورة أو مقدَّمة للنّشر إلى جهةٍ أخرى.
- ٤- أنْ تُكْتَبَ الهوامشُ في آخر المشارَكة إذا تطلّب الأمرُ ذلك.

- تُرْسَلُ المشاركاتُ إلى المجلّة على عنوان البريد الإلكترونيّ الآتي: (albayan@ju.edu.jo).

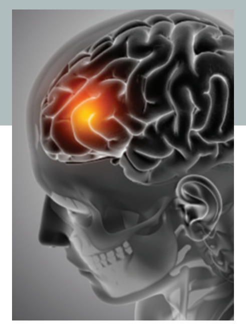
أحكام عامّة

- ١- تعتذر هيئة التّحرير عن عدم إعادة المشاركات غير المقبولة للنّشر إلى أصحابها.
- ٢- المشاركات المنشورة في المجلّة تعبّر عن آراء أصحابها، ولا تُعبّر عن هيئة التّحرير أو المَجْمَع.
- ٣- يخضع ترتيب المشاركات عند النّشر في المجلّة لمعايير فنّيّة تراها هيئة التّحرير.
- ٤- تُصبح المشاركة بعد قبولها للنّشر حقّاً للمجلّة، ولا يجوز النّقلُ عنها إلّا بالإشارة إلى المجلّة.
- ٥- يدفعُ المَجْمَع مكافأة رمزيّةً مقابلَ كلّ مشاركة تُنشر في المجلّة.









مجلّة ثقافيّة تصدر عن

مجمع اللغة العربية الأردني

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنيّة
(٢٠١٩/١٠/٥٢٥٢)

المحتويات

من التّراث ٤٣

قضايا ٥٧

التّرجمة ٨٣

قراءة في كتاب ٩٧

شِعْر ١١١

الافتتاحيّة

عيد الدحيات

رئيس هيئة التّحرير



مُلاحظاتٌ على اسْتراتيجيّاتِ التّعْليم في المَمْلكةِ الأردنيّةِ الهاشميّة

أُقدِّمُ للقارئ الكريم بعض الملاحظات على استراتيجيّات التّعليم التي وُضِعَتْ لتطوير التّعليم ورفع سويّته، وكُلّي أملٌ ورجاء أن يكون في ذلك منفعة للمهتمّين بهذا الأمر الخطير الذي يتعلّق بتنشئة الأجْيال ومستقبلهم:

١. مِن اللّافت للنّظر أنّ استراتيجيّات التّعليم التي وُضِعَتْ في السّنوات الماضية قد انصبّت بشكل رئيسيّ على الجوانب المعرفيّة الأكاديميّة وعلى مكوّنات العمليّة التّعليميّة وكيفيّة إصلاحها وتطويرها، في حين تمّ إهمال جوانب بناء شخصيّة الطّالب وهويّته وغرسِ منْظومة القيم الأساسيّة في وجدانه. والحقيقة أنّ استراتيجيّات التّعليم العامّ والعالي التي انبثقت عن عدد من المؤتمرات واللّقاءات التي عُقِدَتْ لرسم معالم طريق الإصلاح، لم تُوْلِ هذا الجانب الخطير الاهتمام الذي يَستحقّ بحيث تكون هنالك استراتيجيّة تفصيليّة لتربية الأجيال خُلُقيّاً ومسلكيّاً وربطهم بوطنهم وأمّتهم العربيّة والإسلاميّة مِن خلال برامجَ مفصّلة واضحة.

وممّا لا ريبَ فيه أنّه في الوقت الذي تصحّ فيه مقولة «إنّ تقدُّم المجتمع بكلّ أبعاده مرتبط بالتّعليم»؛ تتحكّم عناصرُ الواقع السّائد في توجيه الأجيال، وقد تعيق في أحيان كثيرة التّغيير المنشود.

إنّ التّحدّي المطروح -كما أراه- هو ألّا يقع التّعليم ومؤسّساته في الأردنّ ضحيّةً لبعض أمراض المجتمع الذي فيه نَعيش، فقد وُجِدَتِ المدارس والجامعات من أجل إصلاح المجتمعات وحلّ مشاكلها، أمّا إذا أصبحت مرآةً تَعكس المجتمع حسبُ، فإنّها تكون قد فشلتْ فشلاً ذريعًا في أداء مهمّاتها وتحقيق أغراضها ورسالتها.

لقد حَملتْ لنا السّنوات الماضية ظواهرَ مقلقة، منها -على سبيل المثال- ظاهرة العنف في مؤسّساتنا التّعليميّة، التي أخذتْ، مع الأسف، أشكالاً واتّجاهاتٍ عشائريّة وجهويّة وحتّى عائليّة!

إنّ المطلوب من المُخطِّطين وواضعي الاستراتيجيّات التّربويّة إعادةُ النّظر بمنهجيّةٍ مدروسة شاملة في العلاقة بينَ الطّالب ومدرسته وجامعته بحيث تقوم المؤسّساتُ التّعليميّة بتأهيل طلبتها مَسْلكيّاً وثقافيّاً من خلال برامجَ مدروسة يَضعها مختصّون، تَهدف إلى إيجاد جسمٍ طلّابيّ واعٍ مُنْتمٍ إلى وطنه، بعيدٍ عن كلّ أشكال التّعصّب وضيق الأفق والتّطرّف.

إنّ غرس هذه القيم الحميدة في وجدان الطّلبة يشكّل المادّة الأولى التي تجمع كلَّ الأجزاء المتناثرة في وحدة واحدة تجعل الأردنَّ مِرْجلاً تنصهر فيه كلُّ التّناقضات والاختلافات، فيقدّم للعالم أنموذجًا فريدًا في التّنوّع ضمنَ الوحدة، ونُثبت كلُّنا من خلاله أنّ الاختلاف حقٌّ بل هو أساس الحقوق الأخرى، وهو أيضًا مصدرُها وجوهر أيّ فكرٍ يتعلّق بالإنسان وكرامته؛ كما أنّه كذلك اعترافٌ بالغير وحقّه في التّمتّع بخصوصيّته، وبالتّالي حقّه في الوجود والحياة. إنّ الخُلُق مع المعرفة، والتّربيةَ مع التّعليم، هي الضّمانات الأكيدة لإعداد الكوادر البشريّة التي يحمي بها المجتمعُ نفسَه، فلْنبدأ بوضع خارطة طريق واضحة ومحدّدة للتّعامل تربويّاً معَ الأجيال، هادفينَ إلى ربطها (أيْ الأجيال) مع شعوبها وأوطانها وإعدادها لمواجهة المستقبل الذي يَحمل في طيّاته الكثيرَ من النّذر الخطيرة التي تُهدّد وجود الأوطان والشّعوب. وعلى واضعي الاستراتيجيّات التّربويّة أنْ يبتعدوا عن الحديث في المجرّد والمطلق، فالنّجاحُ في الحياة مرتبط بالسّلوك القويم وتهذيب النّفوس والتّسامح لا بالتّعليم والمعرفة حسبُ.

> على واضِعي الاسْتراتيجيّاتِ والمخطِّطينَ التّربويّينَ أنْ يَأتوا بآليّاتٍ جديدةٍ لتعميقِ العلاقةِ بينَ المدرسةِ والبيت

هذه حقائقُ معروفة، أدّى عدمُ التّركيز عليها وتجاهلُها إلى ضياع سنوات من أعمار أبنائنا وبناتنا، وأَوْصَلَت الكثيرَ من طلبتنا الجادّين ذوي الأخلاق الرّفيعة والأنفس الكريمة إلى: الغربة، والعزوف عن المشاركة، والإصابة بحالةٍ من عدم الاكتراث والإنهاك النّفسيّ.

وعلى واضعي الاستراتيجيّات والمخطِّطين التّربويّين أنْ يَأتوا بآليّات جديدة لتعميق العلاقة بين المدرسة والبيت، وإشراك أولياء الأمور بنحْوٍ أكثرَ فاعليّة وجدّيّة في حلّ المشكلات، ولا بدّ من التّنسيق بين جميع مؤسّسات الدّولة التي تعنى بالأجيال وتربيتهم وإعدادهم، وبخاصّةٍ وزارة التّربية والتّعليم والجامعات ووزارة الأوقاف ووزارة الإعلام ومؤسّسة رعاية الشّباب، من أجل وضع استراتيجيّة للتّوجيه الوطنيّ تُشكّل منبرًا يتمّ من خلاله حوارُ الدّولة -مُمثّلةً بهذه المؤسّسات وغيرها- مع الشّباب.

وأقترح أن يكون مِن ضمن هذه الاستراتيجيّة تحديدُ ساعة واحدة كلَّ أسبوع في المرحلة الثّانويّة تسمّى ساعة الحوار، يقوم خلالها مُعلِّمون مدرَّبون بشرح موضوعٍ معيَّن أو وجهة نظرٍ ما لهؤلاء الطّلبة، ويَتبع ذلك حوارٌ ونقاش، ولا بدّ من التّوسّع فيهما ليشملا جوانبَ مهمّة تتعلّق بتاريخ الأردنّ والتّحدّيات التي تواجهه في المجالات كافّةً وسياسات الدّولة وتوجّهاتها العامّة، وهذا كفيل -إذا

ما تمّ- بأن يبقى طلبتنا متواصلين مع إيقاع الحياة في بلادهم، عارفين بهموم النّاس ومشاكلهم، مطّلعين على المواقف السّياسيّة والقرارات المتّخذة في الدّولة عمومًا. وبهذا يَشعر الشّباب أنّهم مشاركون وعلى درايةٍ بما يجري في أوطانهم، فترتاح نفوسهم ويتعمّق حبّ الوطن في عقولهم وأفئدتهم.

٢. إنّ من الأخطاء التي ارتُكِبتْ وما زالت تُرتكب وجودَ استراتيجيّتين منفصلتين للتّعليم، واحدة للتّعليم العامّ، والأخرى للتّعليم العالي (وكأنّهما شيئان منفصلان!).

إنّ التّعليم بكلّ مراحله مسارٌ واحد يجب أن تكون له استراتيجيّة واحدة تُعالجه منذ رياض الأطفال إلى ما بعد مرحلة الدكتوراه. فالتّعليم بشقّيْه العامّ والعالي عمليّة واحدة متّصلةٌ حلقاتها ومكوّناتها، والكثيرُ من مشكلات التّعليم العالي يتأتّى من رواسب التّعليم العامّ، والعكس صحيح. فلا بدّ من وضْع استراتيجيّة واحدة للتّعليم في الأردنّ. وهذا يعني ضرورة وجود مجْلس واحد يخطّط للتّعليم، أقترحُ أنْ يسمّى مجلسَ التّعليم، يندمج فيه كلٌّ من مجلس التّعليم العالي ومجلس التّربية والتّعليم. وإذا ما أُخِذَ بهذا الاقتراح، فسوف يخدم عمليّة التّخطيط ويؤكّد استمراريّتها وانسيابيّتها وشموليّتها لكلّ مراحل التّعليم وتكامليّة المناهج التّعليميّة فيها، كما وينسّق الجهود ويضعها ضمن مسربٍ تعليميّ وتربويّ واحد. وسنشهد عندها اختفاء الكثير من المشكلات بين التّعليم العالي والعامّ، وسيجد أبناؤنا الطّلبة أنّ مسيرتهم الأكاديميّة والتّربوية مسيرةٌ متواصلة ومتجانسة، لا انفصام بين أجزائها ومكوّناتها وحلقاتها الدّراسيّة، حيث يتمّ الانتقال من مرحلة إلى أخرى بشكلٍ طبيعيّ يمتاز بوحدة السّياسات والقرارات ووضوح الخطّ الدّراسيّ وسلاسته واختفاء العقبات والعراقيل الموجودة حاليّاً.

> الإدارة السّياسيّة للدّولة هي التي تنشد التّغيير لمواجهة المستجدّات، وتعبّر عن ذلك بالتّطوير المستمرّ للإدارة التّربويّة في مؤسّسات التّعليم

٣. إنّ الإدارة السّياسيّة للدّولة هي التي تنشد التّغيير لمواجهة المستجدّات، وتعبّر عن ذلك بالتّطوير المستمرّ للإدارة التّربويّة في مؤسّسات التّعليم من حيث وسائلها وأساليبها وطرقها، باعتباره الخطوةَ الأولى في تنمية الإدارة وتطويرها في الدّولة عمومًا. ولكنّ السّؤال الذي يفرض نفسه هو: مَن سيقوم بتطوير الإدارة التّربويّة ويضع استراتيجيّتها؟ هل هو هذه الإدارة (أقصد التّربويّة) ورجالها في شتّى مواقعهم في مؤسّسات التّعليم، وهم في الأساس سببُ قصورها وعجزها وعدم فعاليّتها؟ فمن يا ترى يجب عليه أن يضطلع بوضع الاستراتيجيّات التّربويّة ومتابعة تنفيذها؟

يكمن الجواب في إيلاء وضع هذه الاستراتيجيّات لمجلس التّعليم المقترح في البند رقم (٢) أعلاه، ويجب، والحال هذه، أن يكون أعضاؤه مزيجًا من الأكاديميّين المتميّزين ومن غيرهم من رجال الفكر ورجال الدّولة المشهود لهم بالتّميّز والإنجاز.

إنّ من الخطأ ترْكَ تطوير التّعليم للأكاديميّين وحدهم، تمامًا مثل خطأ ترك الحرب للعسكريّين

وحدهم. إنّ هذه الاستراتيجيّة مرتبطة برؤيةٍ يجب أن تكون شاملة لعلاقات كلِّ مكوّن من مكوّنات الدّولة مع غيره ضمن البنية الكاملة الشّاملة للوطن. وهذا يحتاج تطبيقُه إلى منظورٍ سياسيّ لا أكاديميّ تربويّ فنّيّ حسبُ. وكلّنا نعرف أنّ الفنّيّ يكون عادةً أسيرَ جزئيّات وتفاصيل قد تَحجب عنه الصّورة المترابطة الكاملة، وقد تضعه أدبيّاتُ المهنة في جوٍّ من تناقض الآراء واختلافها بحيث تغيب عنه الأساسيّات والكلّيّات ووحدة السّياق العامّ لعمليّة الإصلاح من جميع جوانبها ومساراتها السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، فإصلاح التّعليم يحتاج إلى رؤية قادةٍ ورجالِ دولة لا موظّفين فقط. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، أرى أنّ من الحكمة مناقشةَ هذه الاستراتيجيّات التّربويّة التي يضعها مجلس التّعليم المقترح والموافقة عليها من قِبل كلٍّ من لجنتَي التّربية والتّعليم في مجلسَي النّوّاب والأعيان قبل الشّروع في تنفيذها، كما يجب مراجعة هذه الخطّة وتطويرها ومتابعة تنفيذ بنودها دوريّاً وباستمرار من قِبل مجلسِ التّعليم ولجنتَي المجلسيْن.

٤. يجب على أيّة آليّة استراتيجيّة مستقبليّة للتّعليم في المملكة الأردنيّة الهاشميّة أن تأتي بحلٍّ لمعضلة امتحان شهادة الدّراسة الثّانويّة العامّة (التّوجيهي)، فقد أصبح هذا الامتحان بوضعه الحاليّ غير مقبول، لأنّه صار مصدر خوف وإزعاج وقلق للطّلبة وأولياء أمورهم، كما أصبح إلى حدٍّ ما امتحانًا أمنيّاً يُشرف على تنفيذه وحسنِ سيره جهاز الأمن العامّ بدلاً من وزارة التّربية والتّعليم. ولا يُعْقَلُ أن يستمرّ الحال هكذا بحيث يُوْضَعُ الطّلبة في أجواءٍ من الخوف والرّعب من ناحية. كما لا نرضى، من ناحيةٍ أخرى، أن يلجأ أبناؤنا وبناتنا من طلبة المدارس إلى الغشّ في الامتحانات التي أساءت لهم ولسمعة مُشرفي وزارة التّربية والتّعليم.

وأرى من الصّواب إلغاء هذا الامتحان بصورته الحاليّة. وعلينا أن نتذكّر أنّ هذا الامتحان كما هو الآنَ امتحانُ قبول للجامعات حسبُ، وليس امتحانًا من امتحانات وزارة التّربية والتّعليم التي ينتهي دورها الآن بشهادة المدرسة فقط، لهذا فهو امتحانٌ على الجامعات أن تقوم به، بحيث يصبح لكلِّ جامعة أردنيّة امتحانُ قبول تتولّى هي وضع أسئلته وتصحيحها فيتمّ القبول فيها حسب نتائجه. ومن الأفضل أن تكون امتحانات القبول الجامعيّة هذه إلكترونيّة، يَتقدّم لها الطّالب الذي أنهى الدّراسة الثّانويّة حسب شهادة مدرسته. وبما أنّ الجامعات الأردنيّة الرّسميّة والخاصّة تغطّي تقريبًا مساحة الوطن جغرافيّاً، فلْتضع امتحان قبول لها يَأخذ بعين الاعتبار الأحوال التّعليميّة والاجتماعيّة للطّلبة في المنطقة التي تتواجد فيها. ويستطيع أيُّ طالب من أيِّ مكان في المملكة أن يتقدّم لامتحانِ أيّ جامعةٍ أردنيّة يريد الدّراسة فيها.

فلْنترك لجامعاتنا اختيار طلّابها حسب امتحانٍ تضعه هي شريطة موافقةِ هيئة اعتماد مؤسّسات التّعليم العالي عليه للتأكّد من استيفائه الشّروطَ التي تطلبها هذه الهيئة. هذا مجرّد اقتراح، وثمّة بالتّأكيد بدائلُ أخرى لامتحان التّوجيهي الحاليّ، على المخطِّطين وواضعي الاستراتيجيّات التّربويّة إيجادُها. وممّا لا شكّ فيه أنّ عدم إيجاد حلولٍ أو بدائلَ لامتحان التّوجيهي على مدًى يفوق خمسين عامًا -(أوّل امتحان توجيهي كان عام ١٩٦٢/١٩٦٣م)- دليلٌ كافٍ على قصور الاستراتيجيّات

التّعليميّة وعدم قدرة القائمين عليها على التّطوير وحلّ المشكلات والإتيان بالجديد.

٥. إنّ بناء الشّخصيّة الطّلّابيّة الواثقة من نفسها والمعتزّة برأيها يتطلّب -إضافةً إلى التّربية المسلكيّة الخلقيّة- تغيير المنهجيّة العقيمة البائسة المتّبعة في المدارس والجامعات، التي تَعتمد على الإملاء والتّلقين وخزن المعلومات في ذاكرة الطّلبة. على المخطِّطينَ التّربويّين أنْ يُدركوا أنّ غاية التّعليم والتّربية خلقُ الوعي عند الطّالب لا تزويده بمجموعة من المعارف والمعلومات فقط. إنّ منهجيّة التّلقين والإملاء مسؤولة عن جعل أبنائنا مجرّد مُسْتَقْبِلينَ وحفّاظ يُردّدون ما يسمعون، وبذلك يقعون فريسةً سهلة لأرباب الكلام والديماغوجيّين والمتطرِّفين. والحقّ علينا جميعًا، في البيت والمدرسة، لأنّنا لمْ نعوِّدهم على تحليل ما يسمعون والتّأمّل فيه وتمحيصه، ولم ندرّبهم على التّوصّل إلى قناعات من خلال إعمال العقل واستعمال التّفكير والمنطق.

إنّ أهمّ وسائل الاتّصال بين المعلِّم والتّلميذ في سنّ الطّفولة، هي أن يَسمع المعلِّمُ أكثرَ ممّا يتكلّم، ليشجّع تلاميذه على الكلام، ثمّ يناقشهم فيما يتكلّمون. إنّ هذا الأسلوب (أنْ يَسمع المعلّمُ أكثر ممّا يتكلّم) يُوجِد عند الطّالب أهمّ قيمة في التّعليم وفي الحياة كذلك، وهي الشّعور بأهمّيّته، وبالتّالي احترامه لنفسه واعتزازه بقدراته. ولهذا، يجب الاعتراف بأنّ الكتاب وحده عاجز عن إحداث التّغييرات المطلوبة في إنماء القدرات وخلْق الاتّجاهات الإيجابيّة وترسيخ منظومات القيم والفضائل. وتبقى معظم مناهجنا مناهجَ مركزيّة جامدة تعتمد على مجموعة من الكتب المقرّرة المطلوب إكمالها من الغلاف إلى الغلاف! وبهذا اكتسب الكتاب نوعًا من القدسيّة وعُدَّ المفتاح للمعرفة والتّعليم والتّعلّم.

وعلى المخطِّطين أنْ يركّزوا على دليل المنهاج لا الكتاب وحده، وعلى الزّيارات خارج المدرسة واستضافة المحاضرين، وعلى المعسكرات الكشفيّة والإرشاديّة ومعسكرات العمل أيضًا، وغير ذلك من النّشاطات اللّاصفّيّة التي تبقي الطّالب على اتّصال مباشر بالنّاس والمجتمع. إنّ ربط الطّالب مع المجتمع يتطلّب كذلك ربط ما يتعلّمه في المدرسة بما يشاهده ويمارسه في حياته اليوميّة. فلماذا -مثلاً- لا نقدّم لتلاميذ مدارس البوادي والأرياف والقرى أمثلةً من بيئاتهم، ولماذا لا يُشجَّعون على تبصُّر ما عندهم من ظواهر اجتماعيّة سلبيّة والتّفكير في إيجاد حلول لها. كما لا بدّ من ربط التّعليم بمفهوم المهنة عند الفرد، والتّربيةُ -بمفهوم المهنة- هي في واقع الأمر ربطٌ بين عالم المدرسة وعالم العمل، فيكتشف الطّلبة تدريجيّاً قدراتهم وميولهم ورغباتهم ويدركونها، وهذا يعني بلورة مفهوم (الصّيرورة الحياتيّة) في مراحلَ متقدّمة من أعمارهم.

إنّ هذا كلّه يؤدّي دورًا أساسيّاً في توجيه الطّلبة نحو التّعليمين المهنيّ والتّطبيقيّ المَجالينِ الخصبين للإبداع والإنجاز الفرديّ. وتوجيهُ الطّلبة نحو التّعليم المهنيّ وإنشاء مؤسّسات له يجب أن يكون في طليعة اهتمامات المخطِّطين وواضعي استراتيجيّات التّعليم.

٦. سيَشهد المستقبل القريب ازدياد التّرابط والتّداخل بين مختلف أقطار العالم، ولهذا لن تستطيع أيّة دولة عزل نفسها عن الدّنيا في زمنِ ثورة الاتّصالات والمعلومات، وسوف تزداد معرفة النّاس

بلغات غيرهم من بني البشر، وهو ما يُمكّنهم من الوصول إلى المعلومات التي يمكن أن تُحْجز عنهم لأسباب مختلفة، وسوف يَشهد النّظام التّربويّ في الأردنّ ربطًا بين سياسات التّعليم وأنماط التّغيير المتوقّعة في كلّ الميادين. وقد يَفرض هذا وضعًا صعبًا على الأردنّ في ضوء ما يأتي:

أ. المشكلة السّكّانيّة التي تؤثّر على التّعليم والتّربية وعلى النّسيج الاجتماعيّ للوطن. إنّ نسب ازدياد السّكّان في الأردنّ من المعدّلات العالية عالميًّا، كما أنّ التّوزيع العمريّ يختلف كذلك، إذ تزيد نسبةُ مَن هم تحت سنّ الخامسة عشرة على (٥٠) بالمئة من السّكّان، أضفْ إلى ذلك موجات الهجرة من اللّاجئين العرب، وبخاصّة من سوريّة والعراق؛ وهذا يعني ازديادَ الضّغط على فرص التّعليم والعمل، وعلى مؤسّسات التّعليم العالي، والمدارس الحكوميّة، وقد يؤثّر على صمود الكثير من المبادئ، وحقّ النّاس في التّعليم والعمل خاصّةً، وعلى مبدأ تكافؤ الفرص والعدالة الاجتماعيّة، كما ويؤدّي إلى ارتفاع معدّلات البطالة والفقر.

ب. تناقص الموارد على مستوى الفرد والدّولة، الذي قد يؤدّي إلى عدم توافر التّمويل اللّازم للتّعليم، وفي زمن المديونيّة التي ترهق كاهل الدّولة خاصّةً، وتضع عليها التزامات لا بدّ من الوفاء بها. فإذا كان التّقدّم والتّحديث مرتبطين بالتّوسّع في التّعليم وتحقيق مستوًى رفيع له عن طريق توفير كافّة مستلزماته من أجهزةٍ ومبانٍ حديثة ومعلّمين أكْفاء وغير ذلك من الأمور التي لا تخفى على أحد، فكيف يُمكن أن يتحقّق ذلك في زمنٍ نحتاج فيه إلى ضبط الإنفاق العامّ ولا تستطيع فيه الجامعات الرّسميّة رفع رسومها الدّراسيّة على طلبةٍ يشكو أولياء أمورهم من ضيق العيش وغلاء الأسعار وكثرة الضّرائب؟

> ما يزال الشّعب الأردنيّ يعيش تحت سيطرة ظروفٍ اجتماعيّة تجعله يَعُدُّ الدّولة بمثابة الأبِ الذي عليه واجبُ رعاية أسرته

ت. ما يزال الشّعب الأردنيّ يعيش تحت سيطرة ظروفٍ اجتماعيّة تجعله يَعُدُّ الدّولة بمثابة الأب الذي عليه واجبُ رعاية أسرته وتوفير كلّ متطلّبات الحياة لها، وهذا أمر يتنافى تمامًا مع روح الزّمن القادم، بل والحاضر أيضًا، الذي يَعتمد فيه الأفرادُ على أنفسهم ومهاراتهم الفرديّة كوسائل وحيدة للعيش والبقاء. إنّ كلّ هذه العقبات والمعيقات تتطلّب أجهزةً ذات كفاءة للتّخطيط والمتابعة وتقديم المعلومات والبيانات والإحصاءات والحقائق عن المشكلات التي سوف تواجه المؤسّسات التّعليميّة، ومؤسّسات القطاع العامّ التّربويّ خاصّةً. وهكذا، لا بدّ أن يَبحث المخطِّطون وواضعو الاستراتيجيّات التّعليميّة التّربويّة عن مصادر التّمويل –خارج موازنة الدّولة– التي يُمكنها تغطية كلفِ التّعليم المتوقّعة. وقد يكون هذا الأمر من أكبر التّحدّيات التي سوف تواجه المخطِّطين التّربويّين في الأيّام المقبلة.

٧. المعلِّمُ هو حجر الزّاوية في البناء التّعليميّ التّربويّ. فلا بدّ من أن تركّز الاستراتيجيّات على توفير جميع الوسائل والامتيازات التي تؤدّي إلى نجاحه في ممارسة مهنته؛ فلا بدّ أوّلاً من تطوير آليّات اختيار المعلّمين وتدريبهم وتأهيلهم، فمن غير المعقول أن يكون المؤهّلُ العلميّ الشّرطَ الوحيد

لمزاولة مهنة التّعليم، من دون التّأكّد من شخصيّةِ مَن نُوَدِعهم أمانة تعليم الأجيال. ولهذا، لا بدّ من جعل التّعليم مهنة لها ضوابطُ وقواعد وأصولٌ وامتيازات ماليّة تجعلها عملاً يُتنافَس على ممارسته بصفته وسيلةَ عيشٍ كريمة ومحترمة، فالمعلِّمُ الكفؤ، المعتزّ بنفسه وعمله، هو الذي يمهّد الطّريق نحو المستقبل الواعد، وبدونه تبقى الخطط والاستراتيجيّات أقرب إلى الأمانيّ والأحلام منها إلى التّطبيق في الواقع.

إنّ من الجائز أن نسأل هذه الأيّام: أين دور المعلِّم التّقليديّ الذي عرفناه جميعًا في حياتنا الدّراسيّة، في المدرسة والجامعة؟ ألم يكن المعلّم مثالاً يحتذى؟ أليس المعلّمون هم الذين فَتحوا عيوننا على السّياسة ومحبّة تاريخنا ووطننا وأمّتنا وجعلوا منّا القوميّين واليساريّين والإسلاميّين في وقتٍ لم يَسمع النّاس فيه بوزارة التّنمية السّياسيّة؟!

إنّ التّحدّي الأكبر هو إعادة ذلك العهد الذّهبيّ الذي كان المعلّم فيه قائدًا وقدوة، وهذا يتمّ بإعطائه جميع حقوقه، بدون منّة، بحيث تكون مهنة التّعليم -كما كانت في السّابق- وسيلةً تُوفّر لصاحبها حياة كريمة محترمة تضعه في طليعة السّلّم الاجتماعيّ. وعلينا ألّا ننسى في هذا المجال أنّ معظم الذين عملوا وأبدعوا وأجادوا (كموظّفينَ في الجهاز الإداريّ الأردنيّ) جاؤوا من وزارة التّربية والتّعليم. كما لا بدّ من التّوقّف عن جلد الذّات ومهاجمة النّظام التّربويّ الأردنيّ، فجميع من تولّوا مناصب في الدولة الأردنيّة -منذ بداياتها الأولى إلى زمننا هذا- قد تعلّموا في مدارس وزارة المعارف ووزارة التّربية والتّعليم، وتَعهدّهم النّظامُ التّربويّ ورعاهم خيرَ رعاية.

ويَرجع الفضلُ في نجاح الدّولة الأردنيّة إداريّاً إلى مخرجات وزارة التّربية بالذّات، من الشّباب الذين أثبتوا جدارة كبيرة عند تولّيهم المسؤوليّة في شتّى وزارات الوطن ومؤسّساته، كما أسهموا أيضًا بجهودٍ كبيرة مشكورة في خدمة الأشقّاء العرب ومساعدتهم في بناء مؤسّسات تعليميّة مزدهرة ومتقدّمة.

فالشّكرُ كلُّه موصولٌ للمعلِّم الأردنيّ الذي بذل كلَّ جهد ممكن لرفعة الوطن وخيره وصلاحه.

وفي الختام، أرى أنّه قد حان الوقت للاستفادة من خبرات مَجْمَعِ اللّغة العربيّة الأردنيّ (الذي يضمّ مجموعة مميّزة من رجالات الوطن من أهل الاختصاص؛ من سياسيّين وأكاديميّين وتربويّين) في وضع استراتيجيّات التّعليم العامّ والعالي في وطننا، وبخاصّة في مجالات العلوم الإنسانيّة والإداريّة والاجتماعيّة والتّربويّة، فهذا المجمع الرّائد له إسهاماتٌ كبيرة في مجالات التّعريب والمناهج في شتّى المراحل التّعليميّة في مدارسنا وجامعاتنا.

واللّه سبحانه دائمًا هو وليّ التّوفيق، عليه نتوكّل وإليه نُنيب

لغتنا العربيّة



حِمايةُ اللّغةِ العربيّةِ: بالتّشْريعِ أم بالتّثْقيف؟

عمر أبو ناموس*

إذا كانَ الدِّينُ قد أتمّه الله -عزَّ وجلّ- في ذاته، وأَبْلغَه خيْرَ بلاغ، فإنّ اتّباعه لا يَكونُ بتمامه وبلاغه حسبُ، بلْ بالوازع الذي يَهْدي القلبَ ويُلهِمُه حُبَّه واتّباعَه ومراقبة الله عزّ وجلّ. وكذلك اللّغة، فإنَّ تمامَها في ذاتها لا يَعني بالضّرورة اتّباعَ قواعدها والسّيرَ وفقَ طرائقها، بلْ لا بدَّ من وازعٍ يحمل المرْءَ على ذلك.

من هنا جاءتِ القوانينُ على اخْتلاف أنواعها ومضامينِها لغايةٍ اتّفقَ عليْها فلاسفةُ القانون، وهي حُكْمُ المجْتمعاتِ البشريّة مِن خلال حُكْم معاملاتهم الماليّة وانْحرافهم عن قاعدة خُلُقيّةٍ استقرّتِ الجماعةُ التي يَنتمونَ إليها أو يُقيمونَ معها على حُرْمة مخالفتها وعلى الحثّ على إتْيانها؛ والمرادُ بذلك هو أنَّ أصْل القوانين القواعدُ الأخْلاقيّة والاجْتماعيّة. وإنّ أصْل هذه القواعدِ نفْسُ الإنْسان ووازعها الذي حَمَلَها على إتْيان هذا الفعل أو الكفِّ عنه. فمَن يَنْكث في العقْد الذي أبْرمَه مع غيْره يَتحمّل التّبعات التي أقرّها القانونُ جزاءَ تَخلّفه عن تَنفيذ التزامه، وأصلُ هذه القاعدة العامّة التي تُوجب الوفاءَ بالالتزام قاعدةٌ أخْلاقيّة، كما أنَّ أصلَ القواعد القانونيّةِ التي تُجرِّم فعلاً مُعيّنًا يَقترفه المكلَّف قواعدُ الأخْلاق التي أصلُها نوازعُ النّفوس.

فاللّغة كالدِّين مِن حيثُ الدّافعُ على الالتزام بها، وكمالها لا يَعني بالضّرورة اتّباعَها مِن غيْر وازع يَحمل عليه وعلى المجاهدة في حمْل الغيْر عليه أيضًا. فإذا كان ذلك كذلك، فإنّ الدّين قد قرّر جزاءات آنيّةً لمُخالفي بعْضِ أحكامه، وكذلك الجماعاتُ البشريّةُ قرّرتْ قوانينَ وضعيّةً لتَحميَ بها المصالح والأخلاقَ

* مُحامٍ (نظاميّ وشرعيّ).

للأمّة الواحدة، لذلك كانَ واجبًا أنْ يُوْضَعَ في الأمّة الواحدة ذاتِ اللّسانِ الواحد تشريعٌ يَحمي لغتَها التي هي من أبرز معالم هُويّتها، وهي مرآةُ الأمّة العاكسةُ صورةَ وجودِها وحقائق نفوسها وجودة معانيها، وهي الكتابُ الذي لا يُخطئ في نقْل تاريخها والعينُ التي لا تَكذب أو تحرّف في قراءته، والقلمُ الذي لا يَكلّ عن كتابة حاضرها ومسْتقبلها، واليدُ التي لا يُقعدها نَصَبٌ عن بناء حضارتها ومجْدها، والظّهرُ القويُّ الذي لا يَنوء بحمّل ذلك كلّه.

مِن أجْل ذلك أَوْجَدتِ الأممُ تشريعاتٍ لتَحميَ بها لغاتِها وتكفل ديمومتَها من خلال

> أصل القواعد القانونيّة التي تُجرِّم فعلاً مُعيّنًا يَقترفه المكلَّف قواعدُ الأخْلاق التي أصلُها نوازعُ النّفوس

التّقيّد باسْتخدامها في الأمور العلميّة والتّجاريّة والصّناعيّة والثّقافيّة، حتّى لا تطغى لغةُ غيرها عليها فتندثر هي ولغتها معًا. ومن هذا الباعثِ جاء قانونُ حماية اللّغة العربيّة رقم (٣٥) لسنة ٢٠١٥م بثماني عشرة مادّةً ليضْبط -على الأقلّ- بعضًا مِن السّلوك الذي يُعبَّرُ عنه باللّغة في الحيوات العلميّة والصّناعيّة والتّجاريّة والثّقافيّة والإعلاميّة، لأنّ توسّع مجالات الحياة واختلاط ثقافات الشّعوب بعضِها ببعض يَقتضي أنْ يَكونَ تشْريعٌ يَحمي السّمة البارزة في هُويّة كلِّ أمّة، وهي لغتُها.

بعْد هذا، أصْبح مِن الضّروريّ الإجابةُ عن



التساؤل الذي يَدور في كلِّ خلد: هل اللّغة تُحْمى بالقانون أم بشيءٍ غيره؟ ولا ريبَ أنّ القانون يُنظّم سلوك الفرد مع غيره في بعض جوانبه، ولكنّه يقصر دونَ تنظيم حياة الفرد بشكْل كامل. وبمعنًى آخر: مُحالٌ إيجادُ قوانين تُنظّم شؤونَ الفردِ كلَّها في سلوكه مع أهله وغيرهم، وفي مرضه وصحّته ونومه واستيقاظه وعاطفته وفكره واعتقاده وعلْمه وجهله، فإذا كان القانونُ -باتّفاق- قاصرًا دونَ تنْظيم هذه الشؤون بكلِّ تفاصيلها، فإنّه -بلا ريْب- ما دامَ أنّ اللّغة تُنظّم هذه الشؤون كلَّها بكلِّ تفاصيلها، وبالنّظر إلى إتْيانها أو تركها، فمن المُحال أيْضًا أنْ يُوْضَعَ قانونٌ لحماية اللّغة في كلِّ المناحي التي تتناولها من حياة الفرد.

> القانونُ الذي وُجِدَ لحماية اللّغة العربيّة هو قواعدُ تسعى لحفظ اللّغة العربيّة بإبْراز معالم الهويّة في مناحٍ علميّةٍ وصناعيّةٍ وتجاريّةٍ ونواحٍ اجْتماعيّة

والنّتيجةُ التي يُحتّمها المنطقُ السّليمُ أنَّ قانون حماية اللّغة لا يُنظّم علاقة الفرد أو الجماعة باللّغة إلّا بالقدْر الذي يَكفل إبراز السّمات العامّة من هُويّة الأمّة وحقيقة وجودها، وأنّ ما تَسْتمرّ به حياةُ أيّةِ لغةٍ هو الوازعُ النّفسيُّ في ضمائر الأمّة الواحدة، الذي يَقودهم لاتّباعها في مناحي حياتهم كلِّها، كما يَتّبع المُتديِّنونَ أوامرَ الدّينِ ونواهيه، الذي لا يُسْأَلُ الأفرادُ المتَّبعونَ له عن قواعد النّهي والتّرك في عقوبة الشّارع على المخالفين، بقدْر ما تَغْرَوْرقُ عُيونُهم بالدّمْع وتُلْهبُ حماستَهم خُطْبَةٌ دينيّةٌ أو درْسٌ علميٌّ أو مقولةٌ خُطَّتْ على جدار عامٍّ أو في قلْب مَجْلس أو قاعة. واللّغةُ لا تَقلّ شأنًا عن ذلك، فبها بَلّغ اللّه تعالى دينَه وأَنْزل كلامه، وبها شنفت الأسْماعُ وتعلّقت القلوبُ وسُطِّرَ تاريخُ الأمّة العربيّة الأبيّةِ المجيدةِ وأدبُها وفكرُها وفقهُ دينها وأيّامُها.

فالقانونُ الذي وُجِدَ لحماية اللّغة العربيّة هو قواعدُ تسعى لحفظ اللّغة العربيّة بإبْراز معالم الهويّة في مناحٍ علميّةٍ وصناعيّةٍ وتجاريّةٍ ونواحٍ اجْتماعيّة، ولكنَّ الرّكونَ إلى ذلك وحدَه من دونِ النّظر إلى ما استقرّ عليْه الفلاسفةُ وعلماءُ القانون بأنّ القانون يُنظّم بعضَ مناحي الحياة لا سائرَ شؤونها، والنّظر إلى أنّ قواعد القانون التي تُنظّم شأنًا من شؤون الدّين أو اللّغة تَقْتضي وازعًا من لدُن المكلَّف نفسه يَبْعثه على الانْصياع والامْتثال لها، فإنّ الرّكون إلى ذلك وحدَه لا يُحقّقُ غاية القانون فيما قرّرتْه قواعدُه، بلْ يضادّ الغايةَ الأساسيّةَ، وهي ضمانُ اسْتمراريّة اللّغة العربيّة في كلِّ مناحي حياة المكلَّف لا في بعْض شؤون حياته التي نظّمها قانونُ حماية اللّغة العربيّة.

ويَخلصُ بنا ذلك كلُّه إلى نتيجةٍ مفادُها أنَّ القانون لا يَعني شيئًا بدون تثقيفِ المكلَّف وتأجيج وإلهاب عاطفته بكافّة الوسائل المتاحة إذا كان هذا القانونُ يَقصد إلى تنْظيم علاقة الفرْد باللّغة. فإذا ضُمِّنَ البناءُ هذه اللّبنةَ الأساسيّةَ غدا المكلَّفُ مُهَيَّأً لا للامْتثال لقانون حماية اللّغة حسبُ، بل لاتّباع اللّغة في سائر مناحي حياته. ومنْ هنا يُجابُ عن السّؤال بأنّ اللّغة لا تُحمَى بالتّشْريع وحدَه الذي يُلزم الفردَ باتّباع قواعده التي تَحمي اللّغةَ في صورةٍ من صورها، بل لا بدَّ من تثْقيفه للسّعْي نحْوَ حماية اللّغة في كلِّ جوانبها وصورها.

مُعوّقات النّهوض باللّغة العربيّة

عبد القادر عابد*

في العصور الوسطى الأوروبيّة (ما بيْن القرن العاشر ومنْتصف القرن الخامس عشر الميلاديَّين)، كانت أوروبا مشرْذمةً سياسيًّا ومتخلّفةً علْميًّا، ولكنّها بدأتْ عمليّةَ نقلٍ وترجمةٍ من العربيّة إلى اللّاتينيّة ولغاتها. وقد عَدَّ الأوروبّيّونَ اللّغةَ العربيّةَ لغةً علميّةً بجانب اللّغة اللّاتينيّة. ومن ثَمَّ، كان النّقل حرفيًّا من العربيّة إلى اللّاتينيّة في كثير من الأمثلة؛ كنقْل كتابِ المجسطيّ في الفلك، وقد نَقلَه حرفيًّا جيرار الكريمونيّ عامَ (١٢٥٠م) في الأندلس. وفي تلك المرحلة من التّاريخ، كانت اللّغة العربيّة اللّغةَ الأولى عالميًّا، أداةً طيّعةً في نقْل العلْم والمعْرفة بين الأمم.

وفي وقتنا الحاضر، قامتْ مجامعُ اللّغة العربيّة وغيرها، في السّنين المئة السّابقة بوضْع عددٍ وافرٍ من المعاجم التي ضَمّتْ بين جنباتها مئاتِ آلاف المصطلحات العلميّة في شتّى فنون العلم والمعرفة؛ وهو ما يدلّ على عدم وجود مشكلاتٍ حقيقيّةٍ في اللّغة العربيّة نفسِها، في توليد المصطلحات بطرقِ التّعريب المختلفة، فهي قادرة على فعْل ذلك. وبرغم هذا، فما نزال

* عضو مجمع اللّغة العربيّة الأردني؛ أستاذ الجيولوجيا.





مُتخلِّفينَ عِلميّاً وتِقَنِيّاً. ويبدو أنّ هناك معوّقاتٍ تَحُولُ دون النّهوض باللّغة العربيّة والأمّة؛ ومن ذلك:

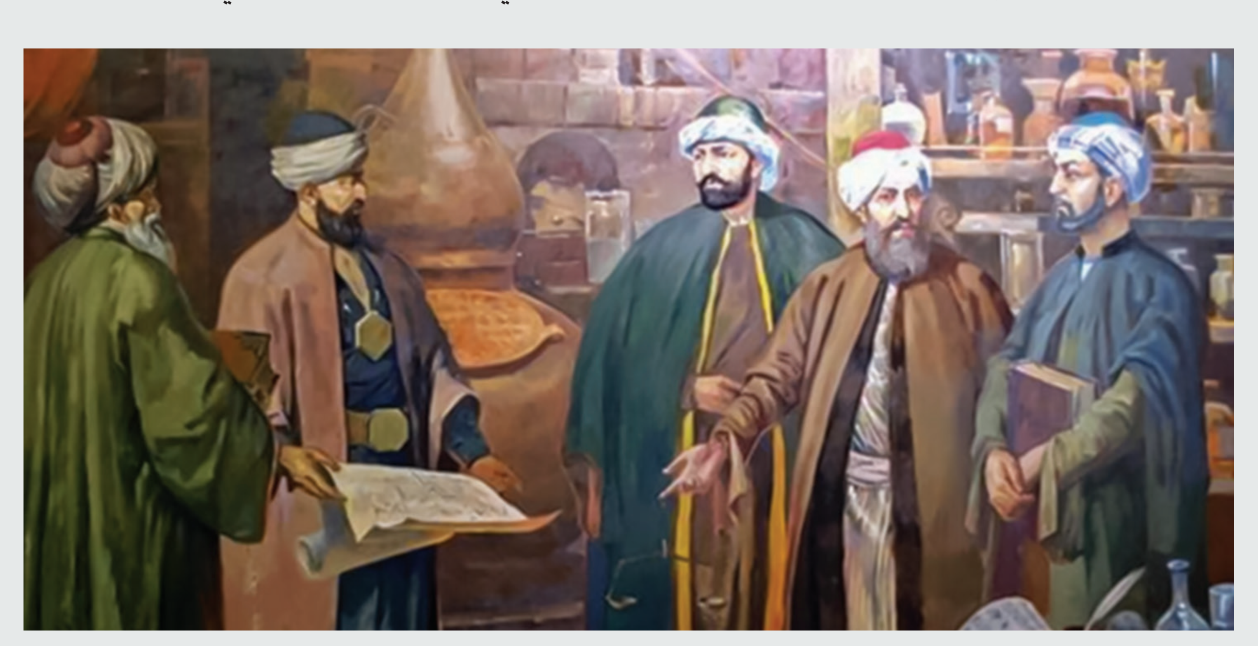
- **انعدام القرار السّياسيّ**

لا يُساورنا أدْنى شكّ في أنّ القرار السّياسيّ يُعدُّ الأساسَ في النّهوض باللّغة العربيّة. والأمثلةُ الدّالّةُ على ذلك كثيرة؛ ففي تاريخ أمّتنا العربيّةِ الإسلاميّة عمليّةُ ترجمة وتعريبٍ ووضعِ مصطلحاتٍ عظيمةٌ تصدّى لها ودَعَمَها خلفاءُ بني العبّاس. فقد تُرْجِمَتْ أمّهاتُ الكتبِ من الإغريقيّة واللّاتينيّة والسّنسكريتيّة والسّريانيّة والفارسيّة والهنديّة إلى اللّغة العربيّة، وتَوَسَّعَ المترجِمونَ والعلماءُ في قبولِ المعرَّب من الأسماء والألفاظ، فدَخَلَ إلى العربيّة آلافُ الألفاظ الجديدة؛ الأمر الذي نَتَجَ عنه لغةٌ عربيّةٌ علميّةٌ سهلةٌ مشرقة، فأصبحتْ وعاء العلم عالميّاً للباحِث والعالِم والدّارس في الجامعات الكثيرة التي كانت مبثوثة في حواضر الدّولة الإسلاميّة جميعها، منها خمسَ عشرةَ جامعةً في الأندلس وحدها.

وقد استمرّ العلم ناطقًا بالعربيّة قرابة سبعة قرون؛ أي حتّى نهايات القرن السّابع الهجريّ/ الثّالث عشر الميلاديّ تقريبًا. ولم يكن ذلك ليحدث لولا تصدّي خلفاء بني العبّاس (أي رأس نظام الحكم) لهذا الأمر مباشرةً، والإنفاقُ عليه بسخاء من مصادر المال العامّ، أي خزينة الدولة.

وعندما قرّر محمد علي باشا أنّ النّهوض بمصر لا يكون إلّا بالتّقدّم العلميّ والتّقنيّ، أَرْسَلَ البعوث وأنشأ المدارس المتخصّصة، وممّا نَتَجَ عن ذلك أنْ تَرْجَمَتْ مدرسةُ الألسنِ ألفَ كتابٍ في مدى خمسَ عشرةَ سنة قبل أنْ يُغلقها عبّاسٌ الأوّل خليفة محمد علي، ثمّ ثلاثةَ آلافِ كتاب بعد إعادة فتْحها ووضع عدد من المعاجم ثنائيّة اللّغة لتسهيل عمليّة التّرجمة من الفرنسيّة والإيطاليّة والإنجليزيّة، وكان التّعليمُ الجامعيُّ في المدارس المتخصّصةِ بالعربيّة، حتّى أصبحتْ مصرُ علميّاً وصناعيّاً على سويّة الصّفّ الثّاني من الدّول الأوروبيّة قوّةً وعلمًا وصناعة، غير أنّ هذه التّجربة لم تدمْ طويلاً فوُئِدَتْ في مهدها، بعد تبعيّة الإنجليز.

ومن ذلك أيضًا، دليلًا على أنّ القرار السّياسيّ هو القول الفصل في التّعريب، قصّةُ



الزّعيم الفيتناميّ (هوشي منه) الذي أمر بـ«الفتّنَمة» الشّاملة، وإحلالِ اللّغة الفيتناميّة بدلاً عن الفرنسيّة التي هَيْمنَتْ على مجتمعِ بلاده أكثر من ثمانين سنة، وقد رأى أساتذة كلّيّة الطّبّ استحالة تحقيق هذا الأمر، لأنَّ فَتْنَمَة الدّراسات الطّبّيّة -بزعمهم- عمليّةٌ مستحيلة، لجهلِهم وجهلِ طلبتها باللّغة الفيتناميّة، فطلبوا منه في مقابلة شخصيّة العُدولَ عن قراره أو استثناءَ كلّيّة الطّبّ من الفَتنمة، فما كان من القائد الفيتناميّ الذي أصغى لهم ساعاتٍ إلّا أنْ حَسَمَ المقابلة قائلاً: «يُسمح لكم بالتّدريس باللّغة الفرنسيّة بصورةٍ استثنائيّةٍ هذه السّنةَ فقط، مع ضرورة تعلُّمكم وطلبتكم اللّغةَ الفيتناميّة الوطنيّة خلال أشهر الدّراسة التّسعة، على أن تُجرى الامتحانات في سائر المستويات في نهاية السّنة باللّغة الفيتناميّة، ثم تُستأنف الدّراسة في السّنة المقبلة باللّغة الفيتناميّة».

ولا يُوجد ما يُشير إلى أنّ قرارًا سياسيًّا بهذا المفهوم سيُتّخذ في المستقبل المنظور في أيّ دولةٍ عربيّة.

• شَرذمة الأمّة

وهو أمرٌ غيرُ خافٍ على أحد، فلا نرى دولةً واحدة من دولنا العربيّة الكثيرة تتبنّى اللّغة العربيّة حاميةً لها منافحةً عنها تبذل قصارى جهدها للنّهوض بها كما تفعل فرنسا وبريطانيا مثلاً. وعلى الرّغم من موادّ دساتير دولنا التي تقول إنّ اللّغة العربيّة هي اللّغة الرّسميّة للدّولة، إلّا أنّها بقيتْ حبرًا على ورق؛ لأنّ الممارسات اليوميّة عكسُ ذلك حتّى في الدّول ذات الوزن السّكّانيّ الكبير أو ذات الوزن الماليّ الكبير. ومن ثَمّ، فكلُّ دولة من هذه الدّول لا ترى نفسَها متبنّية للّغة العربيّة لأنّها واحدة من عددٍ كبير من هذه الدول، فلماذا تكون هي المسؤولة؟!



ويَبدو ممّا يَحدث حاليّاً، أنّ الأمر سيسوء أكثر، وستبقى اللّغة العربيّة تعاني من هذه الشّرذمة الكريهة. وعلى الرّغم من جهود مجامع اللّغة العربيّة في توليد المصطلحات وتوحيد المعرّب منها، إلّا أنّ الشّرذمة السّياسيّة، كانتْ وما تزال، أقوى من ذلك وعائقًا رئيسيًّا له.

• تبعيّة الدّول العربيّة

لقد أدّى احتلالُ الأمّة واستعمارُها إلى تبعيّتها إلى المستعمر رغبةً أو رهبةً. فسنبقى نراوح مكاننا، أو نسير إلى الوراء ومعنا اللّغة العربيّة، حتّى يتسنّى لنا الاستقلال الحقيقيّ.

إنّ التّعريب الشّامل المفضي إلى لغةٍ عربيّةٍ منتجةٍ ومؤثّرة، لا يُمكن أنْ يَحدث إلّا في دولةٍ ناهضة، فالنّهضةُ هي الأساس. ومثالُ محمّدٍ علي في مصرَ الذي سِيقَ قبلُ يُوضّحُ ذلك.

والخلاصة: لن تنهض اللّغة العربيّة بأعمال مجامعها أو الجامعات والمعاهد التي أصبحتْ بالمئات، فقط. ولا بدَّ من القرار السّياسيّ مِن أنظمةِ الحكم والرّغبة في النّهوض، قبل أن نرى لغةً ناهضةً ودولةً أو أمّةً ناهضة.

النّهوض باللّغة العربيّة

عبد الحميد الفلاح *

الأمّة التي لا تؤمن بنفسها لا وجودَ لها، فلا يكفي أن يكون لها سفراءُ ورئيسُ دولة وموظّفو جمارك...، وإذا لم يكن لشعبها طابع خاصّ يعبّر عن نفسه وخصائصه ومميّزاته وطرائقه في الحياة فلا وجودَ له أيْضًا، واستقلالُه استقلالٌ سطحيٌّ لا يدوم. وإنّ طريقة التّعبير الوحيدة لأيّ شعب عن وجوده هي الثّقافة والوعي بالطّابع الخاصّ الذي يميّزه عن غيره، واللّغةُ هي أداةُ الثّقافة وحاضنتها ووسيلتها.

ولسْنا في صدد حصْر أقوال العلماء والمفكّرين في بيانِ أهمّيّة اللّغة العربيّة ودورها في هويّة الأمّة وشخصيّتها وبنائها الحضاريّ والإنسانيّ، فما نريد قوله أنّ المشرِّعين العرب أكّدوا هذا الدّور إذْ نصّتْ دساتير الدّول العربيّة وبعض الدّول الإسلاميّة على أهمّيّته؛ حيث كانتِ العربيّةُ في المرتبة الثّانية في موادّ الدّستور بعد بيان طبيعةِ الحكم فيها.

وقد أَقَـرَّ مؤتمرُ القمّة العربيّة الذي عُقدَ في شهر آذار (٢٠٠٩م) مشروعَ النّهوض باللّغة العربيّة للتّوجّه نحو مجتمع المعرفة، وتُؤكّدُ أهدافُه ومنطلقاتُه ومتطلّباتُه وبنودُه وآليّاتُ تنفيذه الفنّيّةُ والإداريّةُ والماليّةُ ولجانُه الوطنيّةُ العليا أنّه مشروعٌ قوميٌّ حيويٌّ وضروريٌّ في مسيرة تطوير أمّتنا العربيّة ونهضتها، وأنّه أُعِدَّ إعدادًا علميًّا وإداريًّا جيِّدًا ومُحْكَمًا، إذ نبّه إلى كثيرٍ من القضايا التي يَجبُ الأخذُ بها ومراعاتُها لبناء مجتمعِ المعرفة العربيِّ الذي لا يمكن تحقيقه إلّا بالحفاظ على اللّغة العربيّة والنّهوض بها، فجاءتْ أهدافه متساميةً مع مكانتها، ومنطلقاتُه مؤكِّدَةً لدورها

* عضو مجمع اللّغة العربيّة الأردنيّ.

الإنسانيّ والحضاريّ، وبنودُه مُعالِجَةً لكثيرٍ من القضايا والتّحدّيات التي تواجهها في العصر الحاضر.

وأقرّت القمّةُ أيضًا تشكيلَ لجانٍ وطنيّةٍ على مستوى الوطن العربيّ لتحقيق هذه الأهداف، تكون مرجعيّتها جامعة الدّول العربيّة ممثّلةً بالمنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم؛ مُؤكِّدَةً بذلك أنّ هذا عملٌ قوميٌّ نهضويٌّ يحتاج إلى تضافرِ جهودِ الأمّة ومؤسّساتها الرّسميّة والمعرفيّة والعلميّة والتّعليميّة والثّقافيّة، للنّهوض باللّغة العربيّة وإحلالها مكانها اللّائق بها في جميع مجالاتِ حياةِ أمّتنا، ويُجيب عن قولِ القائلين أنَّ النّهوض باللّغة العربيّة يحتاج إلى قرارٍ سياسيّ. أوَلَيْسَ هذا قرارًا سياسيًّا، صدر عن ملوكِ الدّولِ العربيّةِ ورؤسائها وزعمائها، ويعضد ما يَرِدُ في دساتير دولها وقوانينها وأنظمتها وتعليماتها الخاصّة بالنّهوض بها والحفاظ عليها ومدِّها بما تحتاج إليه من متطلّبات العصر وإعداد التّخطيطِ اللّغويِّ السّليمِ والبرامجِ ذاتِ الأثرِ الفاعلِ في تعليمها وتعلُّمِها وإتقانِ مهاراتها؟!

ولعلّني لا أبتعد عن الحقيقة إذا قلت: إنّ العيب والتّقصير ليس في التّشريعات، وإنّما في القائمين على المؤسّسات التي تأخذ على عاتقها النّهوض باللّغة العربيّة: فما الذي عملته اللّجانُ الوطنيّة طوال عشر سنوات؟ هل وضعتْ خطّةً محكمةً منظّمةً على مستوى الوطن العربيّ؟ وهل تواصل بعضها ببعض؟ وهل أجرتْ حواراتٍ ومناقشاتٍ حول بنودها؟ وهل توصّلتْ إلى خطّةٍ موحّدةٍ متكاملةٍ حدّدتْ فيها الأهدافَ والمشكلات وآليّات العمل والتّكاليفَ الماليّةَ المترتّبة على ذلك والمدّةَ الزّمنيّةَ لإنجازها؟ وهل أفادتْ من التّكنولوجيا الحديثة فأنشأتْ مواقعَ إلكترونيّةً تعرضُ خططَها وبرامجَها وإنجازاتِها، وتفيد من التّغذية الرّاجعة في ذلك كلِّه؟! (ويُستثنى من ذلك اللّجنةُ الوطنيّةُ الأردنيّةُ التي صمّمتْ موقعًا لها لكنّه غيرُ مفعّل)، وهلْ صَمّمتْ لها موقعًا عامًّا على مستوى الوطن العربيّ تحت إدارة المنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم؟ وهل التقتْ هذه اللّجانُ لمناقشة أيِّ قضيّة من القضايا الأساسيّة التي تواجه اللّغةَ العربيّةَ واتّفقتْ على وسائلِ معالجتها؟!



اللجنة الوطنية الأردنية للنهوض باللغة العربية

«بلسان عربي مبين»

اللُّغَة العَرَبيّة

في القضاءِ الأردنيِّ وكليّاتِ الحقوقِ في الجامعاتِ الأردنيّة

إعداد

فريق العمل في

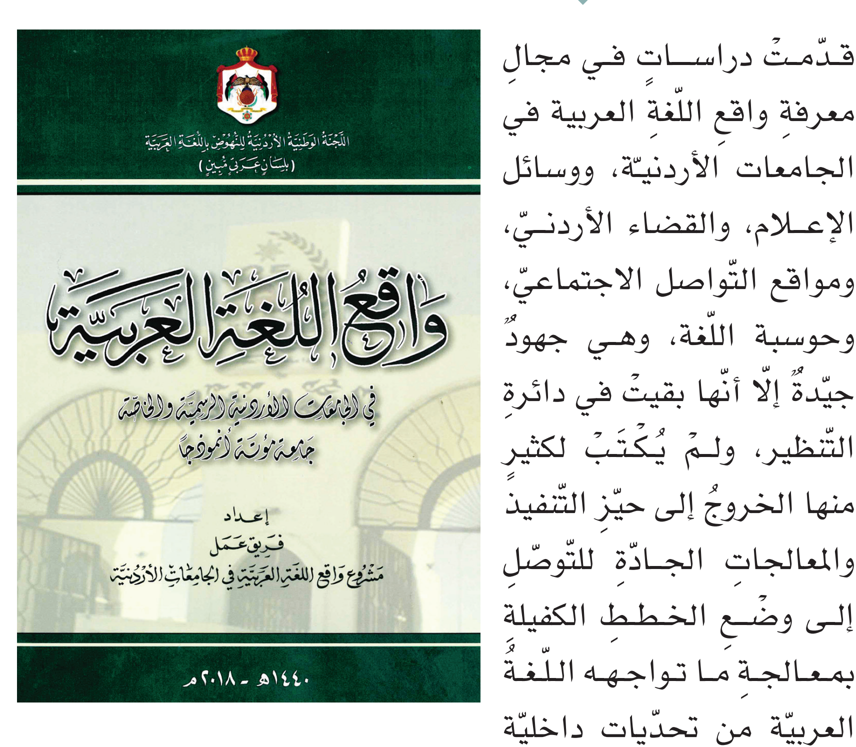
مشروع اللغة العربية في القضاء الأردني وكليات الحقوق في الجامعات الأردنية

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥م

العيب والتّقصير ليس في التّشريعات، وإنّما في القائمين على المؤسّسات التي تأخذ على عاتقها النّهوض باللّغة العربيّة

وفي ضوء ما سَبَق، وفي حدود معرفتي، فإنّه لم يتمّ شيءٌ من ذلك، فكيف يمكن أن نقول إنّ هذه اللّجانَ قَدّمتْ شيئًا في خدمةِ اللّغة العربيّة والنّهوض بها؟! وللإنصاف نَذْكُرُ أنّ اللّجنة الوطنيّة الأردنيّة

قدّمتْ دراساتٍ في مجالِ معرفةِ واقعِ اللّغةِ العربية في الجامعات الأردنيّة، ووسائل الإعلام، والقضاء الأردنيّ، ومواقع التّواصل الاجتماعيّ، وحوسبة اللّغة، وهي جهودٌ جيّدةٌ إلّا أنّها بقيتْ في دائرةِ التّنظير، ولمْ يُكْتَبْ لكثيرٍ منها الخروجُ إلى حيّزِ التّنفيذِ والمعالجاتِ الجادّةِ للتّوصّلِ إلى وضْعِ الخططِ الكفيلة بمعالجةِ ما تواجهه اللّغةُ العربيّة من تحدّياتٍ داخليّة وخارجيّة، كما أنّها لم تتوصّلْ إلى الإجابةِ عن كثيرٍ من هذه التّحدّيات مِنْ مثل: هل تواجه اللّغةُ العربيّة خطرًا حقيقيًّا من العولمة يَتهدّدها ويُهمّشها ويُبعدها عن دورها الحضاريّ؟ وهل للازدواجيّة اللّغويّة وطغيان العامّيّة أثرٌ في تعلّمها وتعليمها وإتقان مهاراتها؟ وهل التّشريعاتُ النّاظمة لها على مستوى الوطن العربيّ كافيةٌ للحفاظ عليها؟ وهل نحن مُستعِدّون للدّفاع عنها ومدِّها بالحياة في هذا العصر؟ وهل تَكَوَّنَ لدينا وعيٌ لغويٌّ بأهمّيّتها ودورها في بناء الفرد والمجتمع والأمّة؟ وهل تَجَسَّدَ لدينا اعتقادٌ أنّه لن تكون للجهود المبذولة في خدمة التّربية والثّقافة والعلوم والمعرفة على مستوى الوطن العربيّ جدوى إلّا بخدمتنا للّغة العربيّة والحفاظ عليها وإحلالها مكانَها اللّائقَ بها في جميع مجالاتِ حياةِ أمّتنا العربيّة: الدّينيّة والسّياسيّة والفكريّة والحضاريّة والعلميّة والمعرفيّة والتّربويّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة؟



وليس مِنَ السّهولة أنْ تَجِدَ أجوبةً شافيةً كافيةً عن هذه التّساؤلات، لأنّ اللّجنة لمْ تتمكّن حتّى الآن من وضع استراتيجيّة لغويّة متكاملة لمعالجة الضّعف الذي اسْتَشْرى في استخدام اللّغة في مختلف فئاتِ المجتمع الأردنيّ، فدراساتُها من هنا وهناك في جوانبَ مِنَ الاستخدام اللّغويِّ العامِّ اكتفتْ بوصفِ ظواهرِ الضّعفِ ولم تُتابع سبلَ المعالجة، وترَكَتْ أسس المشكلة، ومعالجاتُها لا تكون بالتّرقيع الذي لا يُسمن ولا يُغْني من جوعٍ وقد اتّسعَ الخرقُ على الرّاقع، وإنّما تكون بتناولِ جذورها، وتحديد أسبابها الكامنة في التّعليم العامّ، فمن البدهيّ أنّ الشّجرةَ إذا ذبلتْ واصفرّتْ وضعفتْ وتهالكتْ يُبْحَثُ عن سبب ذلك في جذورها ليُعْرَفَ السّبب، وإذا عُرِفَ بَطَلَ العجبُ فتُعالَج بما يَنفعها فتكون (كَشَجرةٍ طيّبةٍ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السّماء تُؤتي أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذنِ ربّها).

وهل يُعْقَلُ أنّ الطّالبَ الذي يُنهي اثنتي عشرة سنةً في التّعليم العامّ، لا يُتقن مهاراتها اللّغويّة، ولا تُسعفه هذه السّنواتُ على أن يَستقيم لسانُه ويُعبّر عن متطلّباته تعبيرًا صحيحًا سليمًا!!

العمليّةُ التّعليميّة التّعلّميّة عمليّةٌ متكاملةٌ في مُعلِّمها ومُتعلّمها ومناهجها وبيئتها التّعليميّة

والعمليّةُ التّعليميّة التّعلّميّة عمليّةٌ متكاملةٌ في مُعلِّمها ومُتعلِّمها ومناهجها

وبيئتها التّعليميّة، وأيُّ خللٍ في مكوّناتها يُؤدّي إلى خللٍ في باقيها، فتكون كما قال الشّاعر:

إذا ما الجُرْحُ رُمَّ على فسادٍ
تَبَيَّنَ فيهِ تفريطُ الطّبيبِ

وأيُّ مشروعٍ يَجب أن يكون له هدف. وأمّا إذا وُضِعَتْ ديباجةُ الأهداف، ولُمِّعَتْ وزُيِّنَتْ بعباراتها المنمّقة وتراكيبها الفضفاضة، وخَلَتْ مضامينُها من الجوهر؛ فإنّنا نقول فيها كما قال المَثَل: «اسْتَسْمَنْتَ ذا وَرَم».

ولو أَخَذْنا المعلِّم، وهو العمود الفقريّ لها، لوجدْنا أنّ بعض القوانين أشارتْ إلى أنّ كلّ معلّم هو مُعَلِّمٌ للّغة العربيّة، وهو لقبٌ لا يَستحقّه إلّا مَن كان أهلاً له، ويَحتاج إلى تدريبِ كلِّ معلّم تدريبًا مُتكاملاً بعد التّأكّدِ من كفايته العلميّة التي يُحدّدها امتحانُ الكفايةِ اللّغويّةِ الذي يَنصّ على أنَّ مَن يَحصل على علامة (٥٠ بالمئة) ناجح، فهل حقّقتْ هذه وغيرُها وجودَ معلِّم كُفُؤٍ؟ وكيف نَقذف إلى الميدان مُعلِّمًا قدرته اللّغويّة دون المتوسّط، وفاقدُ الشّيء لا يُعطيه، وهل الجهةُ التي أُوْكِلَ إليها تدريبُ المعلِّمينَ قدْ حَقَّقَتْ أهدافَها وغاياتِها؟ والجوابُ يَحتاج إلى تقويمٍ علميٍّ حتّى يكونَ صحيحًا سليمًا.

بعض القوانين أشارتْ إلى أنّ كلّ معلّم هو مُعَلِّمٌ للّغة العربيّة، وهو لقبٌ لا يَستحقّه إلّا مَن كان أهلاً له

وليستِ المناهجُ بمَنأًى عن ذلك، فقدْ أُوْكِلَتْ مهمّتُها إلى مركزٍ وطنيٍّ لتطويرها، والسّؤال: ما الأسسُ التي يَعتمدها هذا المركز؟ وهل التّطويرُ شكليٌّ أم جوهريٌّ مبنيٌّ على دراساتٍ علميّةٍ تُجيب عن التّساؤل: لمَ نُطوّر؟ وكيف نُطوّر؟ وما الهدف من التّطوير؟ وما مساحة الإيجابيّات في كتبِ المباحثِ الحاليّة؟ وما سلبيّاتها؟ وما مدى استجابتها لثقافةِ الأمّة وفكرِها وحضارتِها وعقيدتِها وبيئتِها؟ وهل يقوم هذا المركز بتقويمٍ علميٍّ سليم لعمليّة التّطوير؟ وهل النّتائجُ المترتّبة على هذا التّطوير تَأْخُذُ بِيَدِ المعلِّمين والمتعلّمين وترقى بهم إلى أنْ تكون اللّغةُ عندهم هي القاعدةُ الفكريّةُ التي يَنطلقون منها لاكتسابِ المعرفةِ عامَّةً؟

وليستْ مرحلةُ التّعليم الجامعيّ أيضًا بأفضلَ مِن سابقتها، فالقوانين والأنظمةُ تَنصّ على وجوبِ التّعليم باللّغة العربيّة إلّا في حالاتٍ استثنائيّة، ولكنّ أعضاءَ هيئةِ التّدريسِ والقائمين على أمرِ الجامعاتِ وكلّيّاتِ المجتمع يَضربون بذلك عرضَ الحائط! وعلى الرّغم من أنّ اللّجنة الوطنيّة الأردنيّة قدّمتْ دراساتٍ في هذا الشأن، لكنّها بقيتْ حبيسةَ رفوفِ المكتبات، ولمْ تُبادر اللّجنةُ إلى عقدِ لقاءاتٍ وحواراتٍ مُجْدِيةٍ مع الجامعاتِ وكلّيّاتِ المجتمع لتطبيقِ هذه القوانين والأنظمة!. ولا يَتّسع المقامُ لسردِ كلِّ أبعادِ قضيّةِ النّهوض باللّغة العربيّة في هذا المقال.

وفي الختام أقول: إذا لم تَكن التّوجّهاتُ والنّوايا سليمةً فتلتقي الإرادةُ السّياسيّةُ مع الإرادةِ الأكاديميّة والتّعليميّة والوعي بأهمّيّةِ اللّغةِ ودورها في بناءِ شخصيّةِ الفردِ والمجتمع والأمّة، وتَعمل الجهات التّنفيذيّة والتّشريعيّة والقضائيّة على احترام القوانين والأنظمة الخاصّة بالحفاظ على اللّغة العربيّة ومساءلةِ مَنْ يُخالفها؛ فإنَّ أيَّ تطويرٍ ما هُوَ إلّا حبرٌ على ورق، وكلامُ اللّيل يَمحوه النّهار.

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون

اللّغة العربيّة: بعضُ أهلِها عدوٌّ لها!

سُرى سبع العيش *

ليْسَ منَ اللّازمِ أنْ يكون مَنْ يُعارضُ التّعريبَ والتّرجمةَ ويَضع العراقيلَ أمامَ ازدهار اللّغة العربيّة ونموّها وانتشارها وتألّقها -من أعدائها الذينَ يحاربونَ الإسلامَ ويتباهَوْن في عدائهم وتصدّيهم لكلِّ ما يمتّ له بصلة، وبخاصّة لغة البيان العظيمة لغة القرآن الكريم، وهم الذين يُصرّون على تغريبِ الأمّة العربيّة، وإبعادها عن دينها ولغتها ونسغها الإسلاميّ الرّفيع، والتّصدّي لكلّ حركة أو فكرة تعزّز مكانتَها وتجمع كلمتَها وتُوحِّدها.

بلْ إنَّ بعض أعدائها ومُحاربيها مِن أهلِها وأبنائها، سواء عن عمْدٍ أو جهلٍ أو هوًى، مَن أَدْرَكُوا التّغريبَ وعاشوا في أوروبا أو أمريكا وتجنّسوا واستطابوا التّعلّمَ والتّحدّثَ بألْسنة أجنبيّةٍ مختلفة. وطالما كان مَنْ يكنّون العداءَ الشّديد لها مِنْ أساتذة الجامعات في البلاد العربيّة وأصحاب المؤسّسات الطّبّيّة الذين يَتَعَكّزونَ على اللُّغات الأجنبيّة ويَمزجون ويَخلطون بين العربيّة والإنجليزيّة في أحاديثهم اليوميّة وإعلاناتهم وبياناتهم الصّحفيّة والإذاعيّة، ويتباهون بعدائهم للتّعريب.

نَعْلَمُ جيّدًا أنّ أوّل ما قام به الاستعمارُ في جولاتِ وجغرافيّةِ (سايكس- بيكو) إرساءُ مسامير التّغريب وإغلاقُ كتاتيبِ تعليم القرآنِ الكريم لِلنَّشْءِ وتعميمُ الحضاناتِ الّتي تُعلِّم الصّغارَ اللّغة الإنجليزيّة بالأناشيد التي يَرْطنونَ بها، بينما تشحّ اللّغة العربيّة وتصعب على أبنائها، وفي هذا تغريبٌ وتهميشٌ وهجرٌ لها.

وإذا هانتِ اللّغةُ القوميّةُ العربيّةُ ضَعُفَتْ

* عضوُ مَجْمَعِ اللّغة العربيّة الأردنيّ؛ مُستشارةُ طبّ العين وجراحتها.

أصالةُ الأمّة وسَهُلَ هُمودُها ونَصَلَ صبْغُها وسَهُلَ تفكيكُها وتهديمُ بنائها، وهذا ما حَدَثَ في معظم البلادِ العربيّة بعد أنْ تَفكّكَ بناؤها واحْتُلَّتْ فلسطينُ وهُجِّرَ أبناؤها وترعرعت لغةُ القبورِ العبريّةُ في أرجائها..

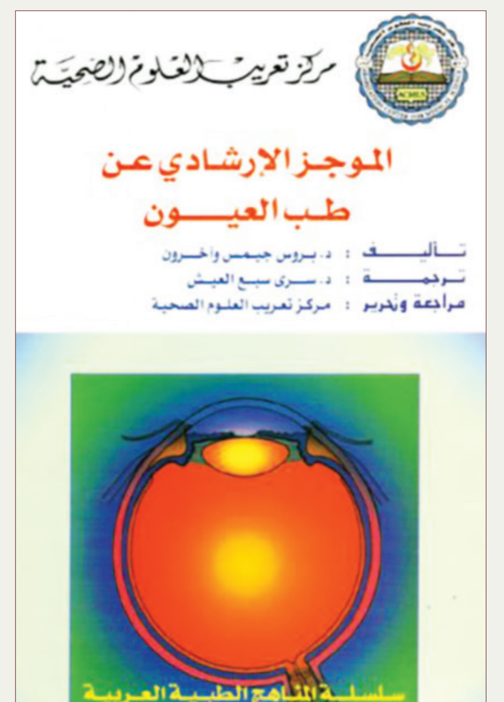
> بعضنا يُحارب التّعريبَ ويُمانع التّرجمة إلى العربيّة وهي –لا شكَّ– ضَرورةٌ لنموِّ اللّغةِ واكتنازها بالعلومِ الطّبّيّةِ وغيرها

إذا تَكفّلتِ الهيئةُ النّاشرةُ بذلك.

أَظْهَرَ الرّجلُ تأييده وأبدى حماسَه وأَخَذَ عنواني وَوَعَدَني أنْ يَتّصلَ بي. وبالفعل، تلقّيتُ رسالةً منه بعد أسْبوعيْن، أخبرني بأنّه عَرَضَ الفكرة على رئيسِ مؤسّسةٍ طبّيّة شهيرة للعيونِ في بلدٍ عربيٍّ إسلاميٍّ صديق، لكنّه رَفَضَ الفكرةَ واستهانَ بها بحُجّةِ أنّ أطبّاءَ العيونِ كلّهم في البلادِ العربيّةِ يُفَضِّلونَ قراءةَ النّشرةِ باللّغة الإنجليزيّة فلا حاجةَ لتعريبها! وأردف أنّه ذَكّرَ ذلك الطّبيبَ الشّهيرَ بأنّه قد يَستطيع الطّبيبُ العربيُّ قراءةَ تلك النّشرةِ باللّغةِ الإنجليزيّةِ ولكنّه لن يَتلذّذَ بقراءتها كما لو كانتْ بلغته العربيّة الأمّ.

أمثلةٌ كثيرةٌ تتراءى أمام عينَيّ، أَذْكُرُ منها يومَ ذهبْتُ لأحضرَ مؤتمرًا في (شيكاغو) بمناسبة مُضيِّ مئةِ سنةٍ على تأسيسِ الأكاديميّةِ الأمريكيّةِ لطبِّ وجراحةِ العيونِ عامَ (١٩٩٦م)، وحينَها قُدِّمَتْ لي نشرةٌ طبّيّةٌ تكنولوجيّةٌ للمستحدثات في جراحةِ العينِ في تلكَ السّنَة، وقد هالني أنّها تُطْبَعُ بسبعِ لغاتٍ ليْسَت العربيّةُ منها! فَتَحَدّثْتُ مع رئيسِ الهيئةِ التي تُصْدِرُ تلك النّشرةَ وسألتُه: لماذا غيّبت اللّغة العربيّة عن تلك النّشرة التّعليميّة؟! فدُهِشَ وذكر لي أنّهُ للمرّةِ الأولى يَطْرُقُ طبيبٌ عربيٌّ هذا المَوْضوع. مع أنّه يَعرف أطبّاءَ مِنْ بلدانٍ عربيّةٍ مختلفةٍ ومنهم أصدقاءُ له، وتساءل: لماذا لَمْ يَتنبّهْ طبيبٌ عربيٌّ قبلَ ذلك! أتراه صعوبة التّرجمة إلى العربيّة؟ فبادرتُه بأنّني رئيسةُ جمعيّةِ تعريب العلوم الطّبّيّةِ في الأردنِّ في ذلك الوقت، وأنّني على استعدادٍ لترجمة تلك النّشرةِ إلى اللّغةِ العربيّةِ

مثالٌ آخر: عندما كنتُ أستاذةً لطبِّ العينِ وجراحتها في الجامعةِ الأردنيّةِ وعُرِضَ عليَّ مُؤَلَّفٌ منْهجيٌّ رصينٌ حول جراحة العينِ باللّغةِ الإنجليزيّةِ ليُدَرَّسَ لطلّابِ الطِّبّ، فاقترحْتُ على الجهةِ النّاشرةِ للكتاب نقْلَه إلى اللّغةِ العربيّة، فأُعْجِبُوا بالفكرةِ وارْتَأَوْا أنْ يُناقشوا الموضوعَ مع أستاذٍ ضليع آخرَ يُشْهَدُ له بالأخلاقِ الفاضلةِ والتّديّنِ والمكانةِ العلميّة الرّصينة حتّى أصْبحَ نقيبًا للأطبّاء، فإذا به يُحبطُ الفكرة!! وأَقْنَعَ النّاشرَ أنّ الكتابَ سوف يَبور إذا تُرْجِمَ للعربيّة، وأنّ الطّلّاب لا يُحبّون قراءةَ الكتبِ الطّبّيّةِ



باللّغة العربيّة!

أرَأَيْتُمْ كيف أنَّ بعضَنا يُحارب التّعريبَ ويُمانع التّرجمة إلى العربيّة وهي -لا شكَّ- ضرورةٌ لنموِّ اللّغةِ واكتنازها بالعلوم الطّبّيّةِ وغيرها، مع أنّهم حَريصونَ على الصّلاةِ والصّيام والقيام!

أمّا في زمنِ (الكورونا)، فالأمثلة على إهمالِ اللّغة العربيّةِ والتّنكّر لها قائمةٌ بين الأطبّاءِ العرب والأردنيّين خاصّةً، فعندما يُقدَّمُ مُؤتمرٌ أو تُعْقَدُ ندوةٌ طبّيّةٌ بالشّكّلِ الافتراضيِّ على أجنحة الشّابكةِ يُخَيَّرُ المُشتركُ بينَ سبع لغاتٍ ليستمعَ المحاضراتِ بها، وليستِ العربيّة واحدةً منها للأسف! رغم أنّ المحاضرات والنّدوات تَصدر في بلدٍ عربيّ!!!



هنا نتساءل: أيّ أمّةٍ نحن! لا نَغارُ على لغتنا، ولا نثور ولا نغضب على إهمالنا وعدم اكتراثنا بها ونحن في عقر دارنا...! كفى قولاً «إنّنا نَعرف اللّغة الإنجليزيّة ونفهم ما يُقال بها». أمّا الأطبّاءُ الفرنسيُّونَ والكوريُّونَ والصّينيُّونَ والإيرانيُّونَ والأتراكُ والهنودُ والألمان، فرغمَ إجادتِهمُ اللّغةَ الإنجليزيّةَ يُفضِّلونَ لغاتِهم القوميّةَ ولا تَستطيب آذانُهم سماعَ العلم بغيرها.

ولا حولَ ولا قوّةَ إلّا باللّه

أبْياتٌ مِنْ قصيدةِ «أمّ اللّغات»
للدكتور عمر حيدر أمين

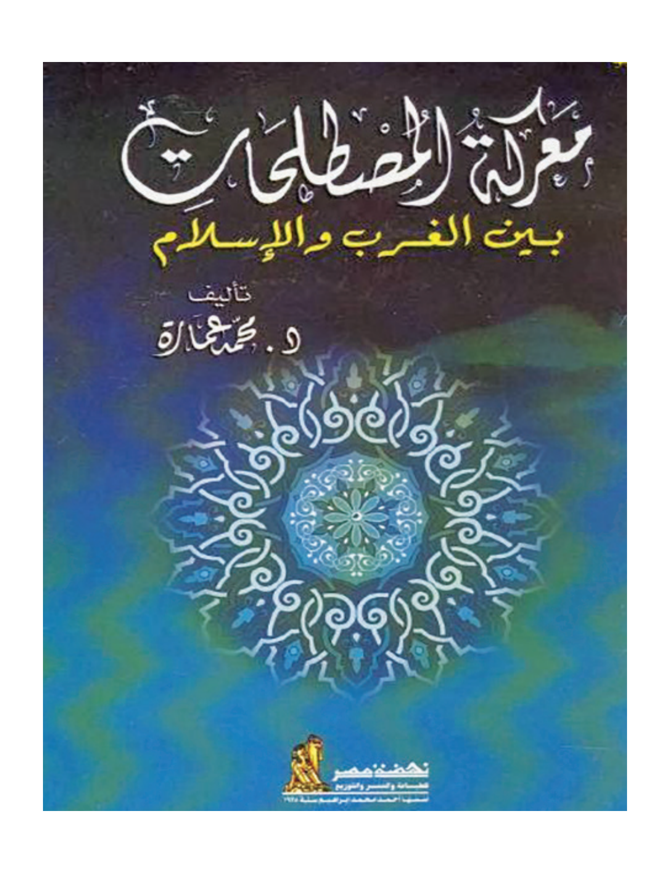
لكِ في رياضِ الخالدينَ جذورُ ... يزهو بها المنظومُ والمنثورُ
في كلِّ لفظٍ دقّةٌ وإبانة ... وبكلِّ حرفٍ نفحةٌ وشعورُ
أيّ العلومِ عجزتِ عن تمثيلها ... وبأيّ فنٍّ خانك التّعبيرُ؟
لكنّ أهلكِ بدّلوا بك عجمة ... واعوجّ ألسنةٌ لهم وسطورُ
أنا ما سمعتُ بمَن يُغيّر جلدَه ... متذرّعًا أنْ ليس فيه بثورُ!!
أعداؤنا دُؤُبٌ لبعثِ رميمة ... وعليكِ يا أمَّ اللّغاتِ نجورُ!
لا لن تضلّي.. فالهدى بك ناطق ... واللّوحُ والفردوسُ والمأثورُ

الحَرْب المصطلحيَّة: الطّبيعةُ والتّقنياتُ وسُبُلُ الأَمْنِ الوقائيّ

بسّام العليّ *

الحَربُ المُصطلحيّة: مفهومها وطبيعتها

بات ما يُعرَفُ اليومَ بحرب المصطلحات أو الحرب المصطلحيّة يَظهر بوصفه مفهومًا ومصطلحًا حضاريًّا وإستراتيجيًّا جديدًا في السّنوات القليلة الماضية، وقد ظهر إلى الآن كتابان يتناولان هذا الموضوعَ وهما: «معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام» للدكتور محمد عمارة، و«حرب المصطلحات» لحسين العادليّ. وثمّة ملحوظتان على هذين الكتابين؛ الأولى: الطّابع الدّينيُّ للطَّرْح، والثّانية: الاقتصار على الجانب التّطبيقيّ مع إهمال الجانب النّظريّ، ما عدا التّقديم بصفحات قليلة للموضوع، ثمّ استغراق الكتابين بتشريح جملة من المصطلحات والتّطبيق عليها.



وتتّصف الحرب المصطلحيّة بطبيعتها التّكوينيّة المعقَّدة والمركَّبة من عناصر معرفيّة متنوّعة؛ كاللّغة

* باحث في اللّسانيّات المصطلحيّة.



والسّياسة والإعلام وعلم النّفس وغيرها من المكوِّنات، فهي حربٌ دوليّةٌ تستند إلى تقنياتٍ لغويّة ومصطلحيّة وأدواتٍ معرفيّة.

وبما أنّ مقولة «الحرب المصطلحيّة» تتضمّن كلمة «حرب» فهذا يعني بالضّرورة استحضار معاني الصّراع والحقّ والباطل والتّخريب المُنهَج والانتصار والهزيمة...إلخ.

وأمّا بالنّسبة إلى أمّتنا فإنّ الحرب المصطلحيّة لها طعمٌ آخر، أو بالأحرى ذات إيحاءاتٍ استثنائيّة انطلاقًا من نظريّة المؤامرة؛ بمعنى أنَّ هذه الحرب من تداعياتِ نظريّة المؤامرة التي تستهدف أمَّتَنا أرضًا وثروةً وأدمغةً ومعرفةً ولغة، يقول حسين العادليّ: «إنّنا نرى أنّ حرب المصطلحات جزءٌ لا يَتجزّأ من عمليّةِ التّركيبِ (التّقنيّ- المفاهيميّ) لأدواتِ هذا الصّراع (القديم- الجديد) الذي يَستهدف في النّهاية تنحيةَ مشروعنا الحضاريّ من التّبلور والحضور والفاعليّة والمبادرة والرّيادة؛ لأنّ المسألة في عمقها تتحرّك لإغراق ساحتنا المعرفيّة بسيلٍ من المصطلحات؛ إمّا المحرَّفة أو الأجنبيّة الوافدة التي تَحمل مضامينَ فكريّةً ومفاهيميّةً مضادّة».

ويُمكن أنْ نقسم الحرب المصطلحيّة إلى داخليّةٍ وخارجيّة؛ لأنّها ترتكز على نوعين من الاستخدام اللّغويّ التّداوليّ للمصطلح؛ هما: الاستخدام العشوائيّ والاستخدام المغرض، اللّذان يُؤدّيان -لا محالةَ- إلى إنتاج التّشويه وفرزِ كمٍّ من التّناقضات الذّهنيّة والعمليّة، كما يرى العادليّ.

فأمّا الحرب الدّاخليّة فسببها الاستخدام العشوائيّ؛ لأنّها من فعل النّاطقين باللّغة (أبناء اللّغة) الذين يَغْفُلونَ عن لغتهم وحقائقها ودقائقها، في حين أنّ الخارجيّة سببها الاستخدام المغرض؛ لأنّها من فعلِ أعداءِ اللّغة الذين هم في النّهاية أعداء الأمّة، الذين يشنّون هجماتٍ عسكريّةً وسياسيّةً تجاه أهل اللّغة.

وإنّ الحربَ الدّاخليّةَ أقربُ إلى الجانب اللّغويّ اللّسانيّ؛ لأنّها ذاتُ طبيعة لغويّة محضة، وتجري بين المصطلحات ذاتها، إنّها صراع (مصطلح- مصطلح)؛ أي: الصّراع على البقاء بين المصطلحات، فالكثير من المصطلحات تعيش جنبًا إلى جنب (تسميات كثيرة على نفس المفهوم) مثل: (جوّال، وموبايل، وخلوي، وخليوي، ونقّال، ومحمول)؛ كلّها تسمياتٌ لمفهوم واحدٍ يشير إلى هذا الجهاز المعروف في ميدانِ الاتّصالات.

ولا يمكن أنْ تكون العلاقة بين هذه المصطلحات المشتركة في نفس المفهوم علاقةَ تعايشٍ سلميّ، إنّها ليست علاقةً حميمة، ولا بدّ في النّهاية أنْ تنتصر إحدى هذه التّسميات، وتنهزم الأخرى! هذا هو قانون البقاء: البقاء للأقوى، إنّه شبيهٌ بقانون الغاب.

> الحرب الدّاخليّة سببها الاستخدام العشوائيّ؛ لأنّها من فعل النّاطقين باللّغة (أبناء اللّغة) الذين يَغْفُلونَ عن لغتهم

ويمكن تشبيه الميدان العلميّ المتخصّص بحافلة فيها مجموعةُ مقاعد، ولكنَّ كلّ مقعدٍ مخصّصٌ لشخصٍ واحدٍ فقط، ولا يجوز أنْ يجلس غيرُ شخصٍ في المقعدِ ذاته.

هكذا ميدانُ العلوم لا يسمح

بوضعِ غيرِ تسميةٍ واحدةٍ لنفسِ المفهوم؛ لأنّ هذا العملَ يُخِلّ بمبدأ الدّقّة العلميّة الذي يقضي بوضعِ تسميةٍ واحدةٍ لمفهومٍ واحدٍ ذي مضمونٍ واحدٍ في حقلٍ علميٍّ واحد.

إنّ هذا النّوع من الصّراع على البقاء ظاهرةٌ مصطلحيّةٌ تندرج في عنوان «حرب المصطلحات» التي تمثّل الصراع بين المصطلحاتِ بعضِها ببعض، وتمثّل تزاحم أقدام المصطلحات في أسواقِ التّداول والاستعمال العلميّ.

أمّا القسم الثّاني للحرب المصطلحيّة فهو الحرب الخارجيّة، ويتمثّل في تحويلِ المصطلحات إلى أدواتٍ لتنفيذِ أوراقِ عملٍ عسكريّةٍ أو سياسيّةٍ أو دينيّة، أي تسليح المصطلحات (تحويلها إلى سلاح)، وهذا دليلٌ على الطّاقات الكامنة في اللّغة ومصطلحاتها، فتغدو سلاحًا شرّيرًا في أيدي مَن يَسْعَوْن إلى العدوان والظّلم؛ ومن هنا يقول الدكتور الشّاهد البُوشِيخيّ في «قولٌ في المصطلح»/ مجلّة دراسات مصطلحيّة: «كان همّ النُّبُوّات، مذ آدم عليه السّلام، تسمية الأشياء بأسمائها، وضبط كلمات اللّه عزّ وجلّ؛ لكيلا يعتريها تبديلٌ أو تغيير. والدِّين، مذ كان، تعريفٌ وتثبيتٌ لمفاهيم المصطلحات الأساسيّة التي يقوم عليها التّصوُّرُ الصّحيح للكون والحياة والإنسان».

ومِنَ العناصر البارزة في هذه الحرب «المصطلحاتُ المُعَوْلَمة»؛ فهي المحرّك الأوّل والرئيس لها؛ لأنّها تقف في موقف المهاجِم، عندئذ يتجلّى دور الجهاز المناعيّ للّغة في التّصيّد والتصدّي لها، عن طريق بثّ وحداتٍ مصطلحيّةٍ مضادّةٍ تقف موقفَ المدافع.

وقد ندّد البوشيخيّ (مدير معهد الدّراسات المصطلحيّة في فاس) -في المرجع المشار إليه قبلُ- بالتّوجُّه الكُلّيّ شطر المصطلحات الوافدة المقترَضة التي تمثّل طوفانًا غربيًّا أغرق أغلب أجزاء الأمّة، واستقبله بعضُنا استقبالَ الفاتح المنقذ بقلبه وقالبه، معنًى ومبنًى، في حين وقفتْ قِلّةٌ نادرةٌ منه موقفَ الحَذِر، فوقَفَتْهُ عند الحدود الحضاريّة للأمّة؛ لمساءلته، والتّثبُّت من نيَّته، وقياس مدى الانتفاع به.

إنّ الإشكاليّة لا تكمن دائمًا في مسألةِ الاقتراض، إنّما تكمن أيضًا في مسألةِ ما وراء المصطلح، فالاقتراض ظاهرة لغويَّة صِحّيّة وصحيحة ونبيلة، لكنْ بشرطِ أن تكون محكومة بضوابطَ أصيلةٍ نابعةٍ من منطق اللّغة الأمّ، إلّا أنّ هذا لا يعني تصويبه (الحكم عليه بالصّواب)، والتّصفيق له، بل ثمّة نقطةٌ أخرى جديرةٌ بالانتباه تتمثّل في ما أُسَمّيه: ماورائيّة المصطلح (Metaterm)؛ وتعني أنْ يكون المصطلح المقترض محقِّقًا لقوانين اللّغة العربيّة، وموافقًا لبنيتها الصّوتيّة، لكنّه قد يخفي وراءه في الوقتِ ذاته أبعادًا لا مرئيّة تتمثّل في احتوائه على فخٍّ من أفخاخِ العولمة اللّغويّة.

> الاقتراض ظاهرة لغويَّة صِحّيّة وصحيحة ونبيلة، لكنْ بشرطِ أن تكون محكومة بضوابطَ أصيلة

أَلَمْ يُلْقِ الأعداء في الحروب على أطفالنا ألعابًا ودمًى ما تلبث أن تنفجر بهم عندما يمسكونها؟ هي في ظاهرها لعبة لكنّها مفخَّخة (قنابل على شكلِ ألعاب)، وهكذا شأن الكثير من المصطلحات التي تُضَخُّ في أوساطنا؛ تبدو جميلةً ومغريةً

ومنخرطةً في النّظام اللّغويّ العربيّ، ومؤتلفةً مع البنيةِ الصّوتيّةِ العربيّة، إلّا أنّها قابلة للانفجار الفكريّ في أيِّ لحظةٍ ممكنة.

لذلك تسعى الأحزاب السّياسيّة المتناحرة، والتّيّارات الفكريّة المتعارضة، والدّول المتحاربة إلى إثبات أحقِّيَّتها في ما تذهب إليه من أعمال وتصرّفات، وتغدو وسائل الإعلام عندئذٍ الأداةَ النّاقلة للآراء والرّؤى والنّظريّات والمصطلحات حتّى ظهر ما يُسمّى «علم الدّلالة التّلاعبيّ» الذي يهدف إلى تغيير معاني الكلمات والمفاهيم، ومجاله الإعلام؛ فهو النّافذة التي يُطلُّ السّاسةُ والسّياسيّون برؤوسهم منها ويقدّمون طروحهم النّظريّة للآخرين.

تقْنياتُ الحرَبِ المُصطلحيَّة:

وهي مجموعة من الأساليب التي يتّكئ عليها العابثون المصطلحيّون، وهذه التّقنيات تتّصف بالتّكاثر المستمرّ، وجميعها تُحقَن في سائلِ العولمة، وتعمل على تخبيث المصطلحات، وسأقتصر هنا على أبرزها:

١. التّكْرار

إنّه أسلوب من الأساليب التي يُلجَأ إليها في تزويرِ المصطلحات، فعندما تستمرّ أطراف النّفوذ والقوّة عبر وسائل إعلامها في تكرار المصطلح ذاته وفق رؤيتها هي، فإنّ هذا يؤدّي إلى بناءِ قناعاتٍ مُزيَّفة مغلوطة في ذهن المرء، وغرس معانٍ وهميّة خادعة خُلّبيَّة عن مضمونِ المصطلح، وتثبيتها جيّدًا، يقول (سيرجي قره- موررزا) في كتابِه «التّلاعب بالوعي» (الذي ترجمه عيّاد عيد): «الوسيلة الأكثر فاعليّة في التّأثير هي التّكرار المتواصل للمزاعم نفسها؛ كي يعتاد النّاس عليها ويتقبّلوها، لا بالعقل بل بالإيمان بها».



الوسيلة الأكثر فاعليّة في التّأثير هي التّكرار المتواصل للمزاعم نفسها؛ كي يعتاد النّاس عليها ويتقبّلوها

٢. التّلاعب بتعريف المصطلحات

إنّ التّعريف من القضايا الخطرة الحسّاسة والإستراتيجيّة المهمّة، ومن الحيطةِ بمكانٍ أنْ نفقه تعريف المصطلحات ومحتواها الدّلاليّ والمعرفيّ، ولا سيّما المصطلحات التي تؤثّر في القناعاتِ ووجهاتِ النّظر تجاه الكون والوجود والحياة، وتجاه قضايا المجتمع والوحدة الوطنيّة، والمصطلحات التي تسهم في

بناءِ رؤيةٍ واضحةٍ تجاه الآخر وكينونته وحقيقته.

إنّ المصطلح يغدو سلاحًا فتّاكًا في قبضة العدوّ أو الخصم لتجييشِ الرّأي العامّ والعالميّ، وتأليب الجماهير ضدّ طرفٍ معيّن، ويتحقّق ذلك عندما يكون تعريف المصطلح وتحديد محتواه المعرفيّ حكرًا على طرفٍ دون آخر، أو عندما يعمد كلّ طرفٍ إلى تعريفِ المصطلح، وتحديد مساحته الدّلاليّة تعريفًا يتماشى وأغراضه وأهدافه، بغضّ النّظر عن كونِ هذا التّعريف مطابقًا للحقيقة والواقع أم لا.

فمثلاً، لقد رأى مفكّرون عربٌ أنّ الولايات المتّحدة الأمريكيّة تعمّدت مصادرةَ حقِّ تعريف مصطلح الإرهاب «بحيث تقوم هي دون سواها بتعريفِ الإرهاب، وتحديد أشكاله وأدواته، واتّهام مَن تشاء به، بل معاقبة مَن تشاء بشنِّ ما يشبه حربًا عالميّةً ضدّه، حتّى من غيرِ محاكمةٍ أو دليلِ إدانة، وهكذا راحت تعلو تساؤلات وتحفّظات كثيرة على امتداد العالم إزاء احتكار الولايات المتّحدة حقَّ تعريف وتحديدِ مدلول (إرهاب) واستخدام الاتّهام به سيفًا تُرهب به كثيرًا من الدّول والأمم» وهذا ما ذكره الدكتور خير الدّين عبد الرّحمن في «الحوار أوّلاً الحوار دائمًا».

وتتجلّى خطورةُ هذا الغموضِ واللّبسِ المتعمَّد، ورفضِ وضعِ تعريفٍ واضحٍ لمصطلح الإرهاب في عدم التّمييز بين العمل الإرهابيّ الحقيقيّ والعمل الدّفاعيّ (المقاومة ضدّ العدوان ودفاع الشّعوب عن حقوقها)، بمعنًى آخر: بين العمل الإرهابيّ الحقيقيّ والعمل المشروع الذي تقنّعه الأطماعُ الخسيسة بقناعِ الإرهاب، وتختمه بختمِ الجريمة، وتلصق عليه طابَع الحكم بالإعدام.

٣. التّحريف

علينا التّفريقُ بين التّحريف المُتعمَّد للمصطلح، الذي يُعَدُّ تزويرًا، وبين التّطوُّر الدّلاليّ للمفاهيم والمعاني، وأمّا التّحريف المتعمَّد فهو تقنية حربيّة مصطلحيَّة تابعة لحركيَّةِ حربِ المصطلحاتِ التي -كما يقول العادليّ- «تتجسَّد عبر آليّاتٍ منهجيّةٍ منظّمة تتنوّع حسب حركةِ الصّراعِ وحقوله ومناخاته التّأريخيّة، بدءًا بالتّحريف المصطلحيّ وانتهاءً بالإسقاط المصطلحيّ على واقعنا القيميّ والإنسانيّ بكلِّ تجلّياته ومستوياته... والهدف تحقيق الإسقاط المفاهيميّ وصولاً إلى المَسْخ القيميّ لكلِّ ما يتّصل بهويّتنا وانتمائنا ومضموننا».

وقدْ أدرك المحاربون المصطلحيُّون أهمّيّة اللّغة سلاحًا يمكنه تغييرُ دفّةِ الصّراع لمصلحتهم؛ يقول (مورزا): «أنفق المجتمع البرجوازيّ على بناء اللّغة الجديدة وغرسها في الوعي أموالاً أكبر بما لا يقاس ممّا أنفقه على الشّرطة والجيش والتّسلّح».

٤. الإيحاء

عاد الغرب إلى استعمالِ الوظيفة الابتدائيّة الأوّليّة للّغة؛ تحقيقًا لمآربهم في التّأثير في الآخر عبر اللّاوعي: الإيحاء، لا عبر الوعي: المعنى؛ يقول (مورزا): «في الأعوام الأخيرة بات يزداد أكثر فأكثر عددُ العلماء الميّالين إلى الرّأي بأنّ المشكلة أعمق، وأنّ الوظيفة الابتدائيّة للكلمة كانت منذ فجر البشريّة التّأثير الإيحائيّ والإخضاع، لا من

> أدرك المحاربون المصطلحيُّون أهمّيّة اللّغة سلاحًا يمكنه تغييرُ دفّةِ الصّراع لمصلحتهم

خلال الإدراك بل من خلال الشّعور».

إنّ أسلوب المتلاعبين بالوعي شبيه إلى حدٍّ كبير بأسلوب المُشعوذين والسَّحَرة في العصور الغابرة؛ إذ كان المشعوذ يعتمد على إيحاءِ اللّغة للتّأثير في عقول النّاس والسّاذجين، وهكذا كان الكُهّان في عصر ما قبل الإسلام يستخدمون الأسجاع لإضفاءِ نوع من الإيحاء الخادع على كلامهم لتكوين قناعاتٍ كاذبةٍ في أذهان النّاس.

يقول الفيلسوف المعاصر (س. موسكوفيتشي) في كتابه «علم الجماهير»: «المدهش وغير المفهوم في الكثير من النّواحي هو سطوة الكلمات الكلّيّة على سيكولوجيا الحشود، هذه السّطوة التي لا تتولد ممّا يقال بل من سحرها، ومن الإنسان الذي ينطقها، ومن الجوّ الذي تولد فيه». فالمصطلح الذي يخرج من فم وزير الخارجيّة يختلف عنه من فم موظّف بسيط في مؤسّسة صغيرة مثلاً! والمصطَلح الذي يُنطَق في أثناءِ احتدامِ الحرب يختلف عنه في أيّام الرّخاء والسّلم.

٥. الإرهاب الدّلاليّ

قد ينخدع المرء بمعنى المصطلح، ويتخبَّط بين الحقيقة والتّلفيق، وهكذا -كما ذكر (موروا)- «استمدَّ الاختصاصيُّون الكثيرَ من البرنامج اللّغويّ للفاشيّين. قال (موسوليني): تمتلك الكلمات قوّة سحريّة هائلة. إذ انكبَّ الفاشيّون على دبّ التعصُّب في الجماهير، فإنّهم أقدموا على خطوة أخرى نحو قطعِ الصّلة بين الكلمة والشيء. يسمّى برنامجهم أحيانًا الإرهاب الدّلاليّ... تُدرَجُ في اللّغة بكمّيّاتٍ كبيرةٍ كلماتٌ تناقض الوضوح والمعنى السّليم. إنّها تقوّض التّفكير السّليم، وتضعف بذلك الحماية ضدّ التّلاعب.

> أسلوب المتلاعِبين بالوعي شبيه إلى حدٍّ كبير بأسلوب المُشعوذين والسَّحَرة في العصور الغابرة

سُبُل الأمنِ الوقائيِّ وتحصينِ الذّات:

ثمّة الكثير مِن سبل الوقاية من المصطلحات المسلَّحة والمسمومة، ودحرها خارج البيئة اللّغويّة العربيّة، من أجل تحصين الذّات والحفاظ على الطّابع الإنسانيّ السَّمْح لأمّتنا التّليدة، ومِن أبرزها:

١. وجوب التّعامل مع المصطلحات الدّخيلة الوافدة والمهاجرة إلى البلاد العربيّة كما نتعامل مع أيٍّ نوعٍ من أنواع البضائع والأجهزة المستورَدة التي تخضع للتّفتيش عند المعابر الحدوديّة، وتُمنح فرصة العبور إذا كانت قانونيّة، وتُمنَع إذا كانت مخالفة.

ويؤكّد (موروزا) أهمّيّة علم المصطلح في التّلاعب بالوعي استنادًا إلى تحذير (غ. شيللر) ودعوته إلى أنّه «من المهمّ على كلِّ مَن يناضل ضدّ منظومةِ الظّلم أنْ يفهم أيّ قوّةٍ يتمتّع بها مَن يتحكّم بعمليّةِ صياغةِ التّعريفات. تعليقُ اللّصاقات المزيّفة، وتشويهُ أهدافِ صراعِ الأعداء الإيديولوجيّينَ هما أسلوبٌ أنموذجيٌّ لآلةِ المستغلّ الدّعائيّة؛ لذلك فإنّ الخطوة الأولى نحو فرضِ الرّقابة على التّعاريف تتلخّص في عدم التّنازل عن المساحة المصطلحيّة المهمّة إلى أقصى حدّ».

٢. عدمُ الانجراف مع المزاعمِ الكاذبة التي لا

تصيب العوامّ فقط، فقد تزعزع النّواة الثّقافيّة للمجتمع، إلّا أنّ نسبة الانجراف تكون أكبر عند العامّة، وأقلّ منها عند النُّخَب؛ لذلك أعود من جديد لدعوة فئاتِ المجتمع كافّةً إلى التّحلّي بالوعي المصطلحيّ، وفقه المصطلحات فقهًا موضوعيّاً سليمًا، يقول العادليّ: «لا بدّ وأن يُحسّن إنتاج المصطلح، وتحديد المصطلح أساسًا، ثم يُحسّن توظيفه واستخدامه». ويرى أيضًا أنّه: «من هنا توجب الأصالة ذاتها الانبعاث لوعي ورصدِ حركةِ المصطلحات -الخاطئة والخبيثة منها- في عمق مداليلها المفاهيميّة، لضمانِ عدم الاختراق لساحتنا قيميّاً وبرامجيّاً؛ على أنّ ذلك لا يعني الانغلاق الذّاتيّ، ويجب ألّا يمنع من التّناغم والتّكامل الإنسانيّ مع جملةِ الثّقافات والحضارات الإنسانيّة».

> الوعيُ وحده لم يَعُدْ سلاحًا كافيًا للمقاومة أمام ظهور تقنيات التّلاعب به. يجب أنْ ندعو إلى وعْيِ الوعي

٣. تعميق الوعي؛ فالوعيُ وحده لم يَعُدْ سلاحًا كافيًا للمقاومة أمام ظهور تقنيات التّلاعب به. يجب أنْ ندعو إلى وعْيِ الوعي، وننتقل إلى مرحلةٍ جديدةٍ يمكن أن نسمّيها (ما بعد الوعي)؛ فقد صار الوعي يحتاج إلى برنامجٍ داعم، وهذا الآخر يحتاج إلى تحديثٍ باستمرارٍ، تمامًا كما نحدّث برنامجَ مكافح الفيروسات بين الفينة والفينة؛ لأنّ تقنيات التّلاعب بالوعي موجَّهة إلى الوُعَاة (أصحاب الوعي ودعاته)، ومبنيّة على معرفة طريقة تفكيرهم، وتشريح بنى عقولهم وأسلوب وعيهم للحقائق، ومِن ثَمَّ اتّخذت الإجراءات المناسبة للتّلاعب بهذا الوعي لاشعوريّاً. يقول الدكتور نبيل علي في «الثّقافة العربيّة في ظلّ وسائط الاتّصال الحديثة» الذي اشترك في تأليفه مع مجموعةٍ من الباحثين/ مجلّة العربيّ (ج٢): «أخشى أن نقع ضحايا كلماتٍ ومصطلحاتٍ تضليليّة: مثل (ثقافة الإنترنت، ثقافة صورة). وأخشى أن تكون هذه عبارة خادعة، وغير حقيقيّة، وأنا أسأل: هل المحتويات على الإنترنت ثقافة صورة؟ هل التّواصل الإنسانيّ على الإنترنت هو ثقافة صورة؟ هل الهجمة الشّرسة التي تواجهها الحضارة الإسلاميّة على الإنترنت هي ثقافة صورة؟ لا أظن».

٤. معرفة أنّ المصطلحات المُعَولَمة مُغلَّفة بالكذب والتّضليل، ودورُنا نحن -حماةَ العربيّة- كسرُ هذا الغلاف الإيحائيّ المحيط بهذه المصطلحات، وتعريتها لتسهيل تفتيشها قبل منحها تأشيرةَ دخولٍ إلى حرم اللّغة العربيّة، وهذا التّصرّف يجب أن نتصرّفه في كلِّ مصطلحٍ دخيلٍ وافدٍ على العربيّة، ولنعلمْ -كما يقول (مورزا)- أنَّ «البحث عن المعنى المخفيّ هو عمليّة نفسيّة صعبة، إنّها تتطلّب شجاعةً وإرادةً حرّة، فالأمر يحتاج إلى أنْ نتخلّص فجأةً من وطأة النّفوذ».

٥. تحرير مضامين المصطلحات، واكتشاف أوجه التّشابه والاختلاف بين مفاهيمها، ولا سيّما المصطلحات الشّائعة والجدليّة والخلافيّة، وهذا شرط أوّليّ وأساسيّ لأيِّ حوارٍ فكريٍّ جادٍّ ومثمر، كما يرى الدكتور محمّد عمارة.

تأثيرُ اللّغة العربيّة في غيْرها من اللّغات

محمّد الهروط *

لا شكَّ في أنّ اللّغة العربيّة قدْ أثّرت في كثير من اللّغات الأُخْريات قديمًا وحديثًا، ويَرجع هذا التّأثير إلى عدّة أسباب مختلفة، ويُعدّ (الاقتراض اللّفظيّ) من أبرز أشكال تأثُّر اللّغات باللّغة العربيّة، وله صورتان: الاقتراض الجماعيّ، والاقتراض الفرديّ، ذلك أنّ اللّفظة التي دخلتْ إلى تلك اللّغات إمّا أنْ تكونَ أصيلةً في العربيّة، أو دخلَتْ عن طريقها.

وتختلِف كلُّ لغة عن الأخرى في درجةِ اقتراضها من العربيّة، حسْبَ الظّروف التي ساعدَتْ على الاقتراض، وتحتلّ اللّغاتُ الشّرقيّةُ كالفارسيّةِ والتّركية صدارةَ اللّغاتِ تأثُّرًا بالعربيّة، فعند النَّظَرِ إلى اللّغة الفارسيّة نجد شواهدَ كثيرةً دالّةً على الاقتراض؛ وذلك بسبب العلاقةِ القديمة بين اللّغتين، المتمثّلةِ بازدهارِ التّرجمة وعلاقةِ الجوار وعلاقةِ دولة الفُرْسِ القديمة مع الجزيرة العربيّة وبقيّة المشرق العربي والدُّوَيلات الّتي كانتْ خاضعةً لهم، وبسبب العامل التّجاريّ أيْضًا كما ذَكَرَ مازنٌ النّعيميُّ في بحثِه الموسوم بـ«اللّفظة العَربيّة في أفْعال اللّغةِ الفارسيّة البسيطة والمُركّبة». يقولُ حسين محفوظ في بحثه الموسوم بـ«أثر اللّغة العربيّة في الشّعوب الشّرقيّة»: «اللّغة العربيّة أثَّرتْ في اللّغة الفارسيّة بنسبةٍ تَصِلُ إلى (٦٠٪) مِن مجموع مُفرداتها»، وهي نسبةٌ تقديريّة تقريبيّة، قد تزيد، وقد تنقص.

استقبلتِ اللّغةُ الفارسيّة العديدَ من المفردات العربيّة، ولمحمّد نور الدّين في هذا الشّأن معجمٌ موسومٌ بـ«معجم الألفاظ العربيّة في اللّغة الفارسيّة»، وقد قبلتْها بعدَ إخضاعها لقوانينِها

* نائبُ عميد كلّيّة العلوم الأساسيّة والإنسانيّة- الجامعة الألمانيّة الأردنيّة.

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
عمادة البحث العلمي



معجم الألفاظ العربية في اللغة الفارسية

إعداد
الدكتور محمد نور الدين عبد المنعم

١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م

الصّوتيّة ونظامها الكتابيّ، مُتَّبِعَةً في تعاملها معها الطّرائقَ التّالية، حسب ما جاء في المُعْجَم:

- قبول اللّفظ بالمعنى والشّكل الكتابيّ (الغرافيمي) المستعملَين في اللّغة العربيّة، مثل: (كلمة)، و(نبات)، و(مدير)، و(الشّخص).

- إبدال بعض الأصوات العربيّة إلى الفارسيّة، مع بقاء معنى اللّفظ العربيّ، مثل تغيير صوت (ح) إلى صوت (هـ) كما في كلمة (حفيد) التي صارت (هفيد)، وصوت (ق) إلى (غ) على نحو كلمة (مذاق) التي صارتْ (مذاغ)، وصوت (ع) إلى (أ) مثل كلمة (العَين) التي صارتْ (الأين)، وأبدلوا بصوت (ظ) صوت (ز) مثل كلمة (ظلام) التي صارتْ (زلام).

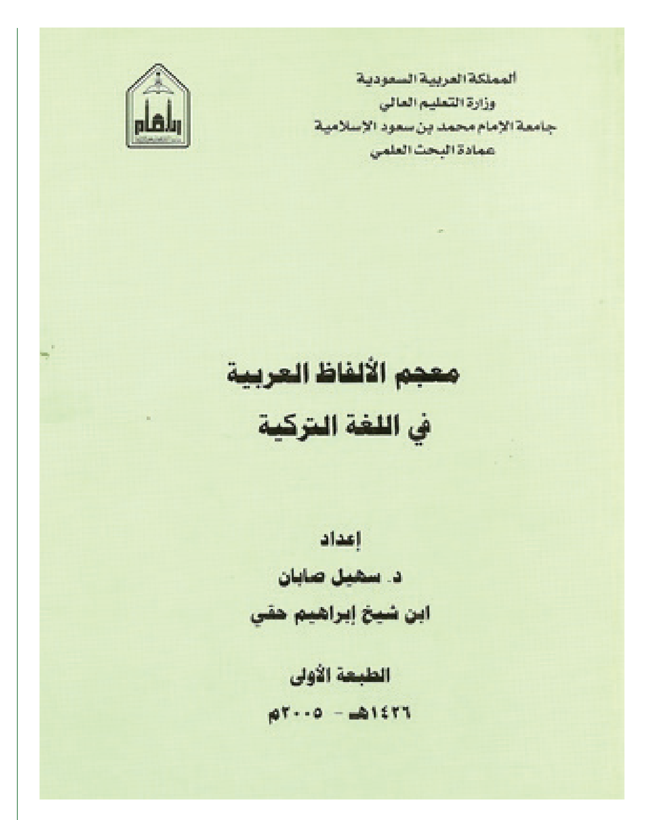
- تغيير المعنى مع بقاء الشّكل الكتابيّ للّفظ، مثل كلمة (نشاط) التي تعني في الفارسيّة (السّرور).

- إبدال بعض الأصوات مع زيادةٍ في المعنى، مثل كلمة (زراعة) التي زِيدَ على معناها في اللّغة العربيّة معنًى آخرُ هو (المزرعة)، وغُيّرتْ (ـة) إلى (ت) فصارتْ (زراعت).

- تغيير حركةِ الكلمةِ مع بقاء المعنى العربيّ، مثل حركة صوت (ر) في كلمة (مبارزة) في اللّغة العربيّة، التي تغيّرتْ في الفارسيّة مِن (الفتحة) إلى (الكسرة) في النّطق، فصارت (مبارِزة).

وهذا الأمرُ يَنْخَلِعُ على اللّغة التّركيّة المعاصرة أيْضًا؛ التي وُلِدَتْ بعد الانقلاب اللّغويّ الذي قاده مصطفى كمال أتاتورك (١٨٨١-١٩٣٨م) على اللّغة العثمانيّة القديمة التي كان بُنْيانُها خليطًا من اللّغات: التّركية والعربيّة والفارسيّة، إذ تقتربُ نسبةُ تأثيرِ العربيّة فيها من نسبةِ تأثيرها في الفارسيّة، فتأثيرُها في المصطلحات الدّينيّة والثّقافيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة واضحٌ فيها، وقد ذَكَرَ الدكتور سهيل صابان في

أثّرتْ اللّغة العربيّة في اللّغة الفارسيّة بنسبةٍ تَصِلُ إلى (٦٠٪) مِن مجموع مُفرداتها، وهي نسبةٌ تقديريّة تقريبيّة


المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
عمادة البحث العلمي

معجم الألفاظ العربية
في اللغة التركية

إعداد
د. سهيل صابان
ابن شيخ إبراهيم حقي

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

«مُعْجَم الألفاظ العربيّة في اللّغة التّركية» أنّ الأتراك «اسْتعاروا مصطلحات في النّحو والصّرف والعروضِ وأوزانه»، وما الْمَلْحُوظُ في المعاجم والدّراسات التي جَمَعَتِ المفردات التّركيّةَ مِن أصولٍ عربيّةٍ إلّا دليلٌ على ذلك، فالتّغيير الحاصل في الكلمات العربيّة هو كتابتها بالحروف اللّاتينيّة مثل (دليل= delîl)، و(نصيب= nasib).

وبالرّجوع إلى كتاب (Osmanli Türkçesi Sözlüğü) لـ(Mehmet Kanar) نَجِدُ تغييرًا بسيطًا في طريقةِ كتابةِ الكلماتِ ونطقها، مع بقاءِ المعاني العربيّة، وذلك لعدم وجودِ نُطْقٍ لبعضِ الأصواتِ العربيّةِ في الأبْجديّة التّركيّة، مثل:

١. تحوُّل صوت (ض) إلى (z)، مثل كلمة (ضيافة) التي تُكْتَبُ (ziyâfet).

٢. تحوُّل صوت (ط) إلى (t)، مثل كلمة (إفطار) التي تُكْتَبُ (iftâr).

٣. تحوُّل صوت (و) إلى (v)، مثل كلمة (وطن) التي تُكْتَبُ (vatan).

أمّا اللّغاتُ الأوروبيّة فقد بدأتْ علاقتُها اللّغويّة مع العربيّة -حسب ليْلى صِدّيق في بحثها «تأثير اللّغة العربيّة في غيرها مِن اللّغات»- مِنَ القرنِ الهجريِّ الرّابع، واستمرّتْ طيلةَ وجودِها في الطّرف الجنوبيّ مِنْ أوروبا في الأندلس وصقلّيّة وما حولهما مِن الجزر حتّى آخر القرن الخامس عشر الميلاديّ:

ففي إسبانيا لمْ يَقتصرْ تأثير الحضارة العربيّة الإسلاميّة على الجانب الاجتماعيّ والاقتصاديّ والبناء والعُمران والعلوم، بل وصل إلى اللّغة، فكان من الطّبيعيّ أنْ تَقترض اللّغة الإسبانيّة من العربيّة ألفاظًا عديدة؛ بسبب الاحتكاك اللّغويّ والاتّصال العلميّ والتّعايش البشريّ المباشر مع المسلمين فيها لمدّةٍ زمنيّةٍ طويلةٍ وصلتْ إلى ثمانيةِ قرون.

وقدْ قَدّرَ اللّغويّان: (دوزي) (١٨٢٠-١٨٨٣م) و(أنجلمان) (١٨٤٣- ١٩٠٩م)، أنّ رُبع مفردات اللّغة الإسبانيّة أصلُها عربيّ، وأوّلُ ما يَلْفِتُ النّظرَ أسماءُ المُدنِ الإسبانيّة التي ما زالتْ تَحتفظ ببقايا أصولِها العربيّة، ولكنْ بما يَنسجِم مع النّظام الصّوتيّ للّغة الإسبانيّة؛ مثل: مدينة (مدريد/ Madrid) التي كانتْ -سابقًا- تُسمّى (مجريط)، وكلمةُ (مجريط) تتَكَوَّنُ مِنَ الكلمة العربيّة (مَجْرى) -لكثْرةِ مَجاري المياهِ فيها- والمَقْطع اللّاتينيّ (IT). ومدينة (مرسيّة) التي تُكتَبُ بالإسبانيّة: (Murcia)... ويُنْظرُ في هذا بحْثُ «أثَر اللّسان العربيّ في اللّغة الإسْبانيّة» لسامي الحَفّار.

يَقولُ اللّغويُّ الإسبانيّ (لابيزا) (١٩٠٨- ٢٠٠١م)، عندَ حديثه عن الألفاظ العربيّة في اللّغة الإسبانيّة، في كتابه الموسوم

بـ (Historia de la lengua española): «تَحْتوي الإسبانيّة على كلمات تبْتدئ بـ (أل) التّعريف، وهذا ما يُرشدنا في أحيانٍ كثيرةٍ إلى أنّ هذه الكلمات أصلُها عربيّ، وقد حافظتْ تلك المفرداتُ على معناها العربيّ مع تغييرٍ في الكتابة والنُّطق عند انتقالها إلى الإسْبانيّة، وهذا التّغيير منطقيّ؛ بسبب الفروق الشّاسعة بين الحروف العربيّة واللّاتينيّة».

ومِن الألفاظ الشّائعة في اللّغة الإسبانيّة (حسب المصادر المختصّة بهذه القضيّة؛ مثل بحثِ «كلمات عربيّة في اللّسان الإسْبانيّ» لإلياس قُنْصُل، وبحثِ «أثر اللّغة العربيّة في اللّغات الأجْنبيّة» لداود سَلُّوم، وبحث «تأثير اللّغة العربيّة في اللّغة الإسْبانيّة» لخالد الصُّوفيّ، وكتاب «غرائب اللّغة العَربيّة»، لرَفائيل اليَسُوعيّ): كلمةُ (Hasta) وأصلُها (حتّى) في العربيّة، وكلمةُ (Aceite) وأصلُها (الزّيت)، وكلمةُ (Alamud) وأصلُها (العمود)، وكلمةُ (Alazan) وأصلُها (الحصان)، وكلمةُ (Alcalde) وأصلُها (القاضي).

أمّا اللّغةُ الألمانيّةُ فإنّ حظّها من المفردات العربيّة أقلّ من اللّغات الأخريات، وربّما يُعْزى ذلك إلى أنّ ألمانيا لم تَقُدْ نَفْسَها خلْفَ الاستعمار، ولا تَرْبطها بالدّول العربيّة أو الإسلاميّة حُدودٌ جغرافيّة. لكنّ، حديثًا، نَشطتْ حركة الاقتراض اللّغويّ من اللّغة العربيّة بسببِ العولمة والمشاريع الاقتصاديّة والتّبادل الثّقافيّ والأكاديميّ والتّجاريّ المباشر والتّرجمة، فانتقلتِ المفرداتُ العربيّةُ إليها عبر لغاتٍ وسيطةٍ كلغات شعوبِ البحر الأبيض المتوسِّط التي احتكّتْ باللّغة العربيّة: الإسبانيّة والفرنسيّة والإيطاليّة والبرتغاليّة، وقدْ تَكونُ أكثرُ المفردات العربيّة التي دخلَت الألمانيّةَ جاءتْ عبرَ تلك اللّغاتِ مِن الحضارة العربيّة الإسلاميّة في الأندلس.

ومِن الكلمات العربيّة التي دخلتْ أُسْرَةَ اللّغة الألمانيّة (حسب المصادر ذات الصّلة): كلمةُ (مطرح) التي تنقّلتْ بين الإيطاليّة القديمة (materazzo)، والفرنسيّة (matelas)، حتّى وصلتِ الألمانيّةَ في القرن الخامس عشر الميلاديّ بالصّيغة الكتابيّة النّهائية (Matratze). وكلمةُ (مَسْجد) التي انتقلت بدايةً إلى الإسبانيّة في القرن الثّاني عشر تقريبًا بشكلها الكتابيّ (mezquita)، ثمّ هاجرتْ من الإسبانيّة إلى البرتغاليّة (mesquita) في القرن الثّالث عشر، ثمّ إلى الإيطاليّة القديمة (mesquite)، والفرنسيّة القديمة (meschita) في القرن الرّابع عشر، ثمّ إلى الإيطاليّة (moschea) في القرن الخامس عشر، ثمّ إلى الفرنسيّة في القرن السّادس عشر (mosquée)؛ ويَبدو أنّ الألمانيّة استعارَتْها من الفرنسيّة في القرن السّادس عشر؛ والدّليل تكرُّرُ صوت (e) في آخر الكلمتين، ثمّ استقرّت على الشّكل الكتابيّ (Moschee) إلى يومنا هذا. وكلمةُ (إمام) في العربيّة التي يقابلها في الألمانيّة كلمة (Imam).

واللّغةُ الإنجليزيّةُ تحوي غلّةً من الكلمات العربيّة في سَلّةِ معجمها اللّغويّ التي -كما يقول عبد الصّبور شاهين في كتاب «دراسات لغويّة»- «دخلتْ إليها مباشرةً أو بلغةٍ وسيطة، إلّا أنّ صِلَة العربيّة بالإنجليزيّة بدأتْ متأخّرةً في منتصفِ القرن الحادي عشر، ولمدّةِ خمسةِ قرونٍ -على الأقلّ- بعد ذلك».

> من الطّبيعيّ أنْ تَقترض اللّغة الإسبانيّة من العربيّة ألفاظًا عديدة؛ بسبب الاحتكاك اللّغويّ والاتّصال العلميّ

فإذا أمْعَنّا النّظر في المعاجم المُخصّصة لجمْعِ



الكلمات الأجنبيّة في الإنجليزيّة، سنجدها تُسجّل العديدَ من المفردات العربيّة، ومنها: كلمةُ (قُطْن) التي انتقلتْ من العربيّة إلى الفرنسيّة، ثمّ إلى الإنجليزيّة، وانتهى بها الأمرُ عند الصّورة الكتابيّة (cotton). وكلمة (غزالة) التي استعارَتْها اللّغات اللّاتينيّة: الفرنسيّة والإسبانيّة والبُرْتغاليّة في القرن السّابع عشر، واللّغات الجرْمانيّة: الإنجليزيّة والألمانيّة والهولنديّة، واستقرّتِ الكلمة في الإنجليزيّة على الشّكل الكتابيّ (gazelle). وكلمةُ (تَعْريفة) التي بدأت رحلَتها عبرَ التّركيّة والإسبانيّة والإيطاليّة والفرنسيّة، ومنذ القرن الثّامن عشر تستعْمِلُها الإنجليزيّة بالشّكل الكتابيّ (tarrif).

أمّا اللّغة الفرنسيّة، فمن خلال النّظر في مصطلح (الاقتراضِ اللّغويّ) بين اللّغات، نلاحظ أنّها مثّلتْ مُفْتَرقَ الطُّرق في معادلة التّأثّر والتّأثير بين اللّغة العربيّة واللّغات الأخريات، فلم تَكتفِ باستعارةِ الألفاظ من العربيّة فقط، بل كانت لغةً وسيطةً لنقلِ الألفاظ العربيّة إلى اللّغات المختلفة.

وتشير الدّراسات اللّغويّة التي تناولتْ ظاهرة (الاقتراض اللّفظيّ) في اللّغة الفرنسيّة إلى أنّ عددَ الكلمات الأجنبيّة فيها ليس قليلاً، ومِن تلك الدّراسات ما قامتْ به الباحثة (هِنْريت والتر) مع الباحث (جيرارد والتر) إذ قرّرا جمعَ الكلمات الفرنسيّة ذات الأصول الأجنبيّة، فاختارا مُعْجَمَين فرنسيّين مشهورين؛ ليكونا مَرْجِعين لاستخراج الكلمات الأجنبيّة، الأوّل: (Le petit dictionnaire de le langue franaise)، والثّاني: (Le Micro – Robert plus)، وكلّ واحد منهما يحتوي على (٣٥٠٠٠) كلمة فرنسيّة، وبعد الانتهاء من الإحصاء والتّدقيق وَجَدا أنّ الكلمات الفرنسيّة الأجنبيّة تصل إلى (٤٠٦١)؛ بنسبةٍ تصل إلى (١٣) بالمئة تقريبًا من مجموع المفردات الفرنسيّة، وكان نصيبُ اللّغة العربيّة منها (٢١٢) كلمة، بنسبةٍ تصل إلى (٢,٥) بالمئة من مجموع المفردات الأجنبيّة.

كما عملتِ الباحثةُ (هنريت والتر) دراسةً مُشابهةً، إذ جمعتْ (٤١٩٢) كلمة أجنبيّة، من بينها (٢١٤) كلمة عربيّة، واحتلّتِ العربيّةُ المرتبة الخامسة في قائمة اللّغات الأجنبيّة.

أمّا اللّغويّ الإيطاليّ (ماريو بي) (١٩٠١-١٩٧٨م)، فقد جَمَعَ عيّنة من المفردات الأجنبيّة في اللّغة الفرنسيّة تبلغ (٤٦٣٥)، وأرْجَعها إلى اللّغات التي جاءتْ مِنْها، فكان عددُ المفردات العربيّة (١٤٦)، بنسبةٍ تصل إلى (٢,٣) بالمئة تقريبًا.

ومِن أمثلةِ الكلمات العربيّة في الفرنسيّة: كلمةُ (غرّافة) التي صارتْ في الفرنسيّة (caraf)، وكلمةُ (مطرقة) التي يقابلها في الفرنسيّة (matraque)، وكلمةُ (مهبول) التي تُكْتَب بالفرنسيّة (maboul)، وقد استعارتْها الفرنسيّةُ من حديثِ الجزائريّين.

إنّ أعداد المفردات الأجنبيّة في الفرنسيّة بين الدّراسات السّابقة متباينة، لكنّها متقاربة، وهذا وضعٌ طبيعيّ؛ لأنّ دراسةَ أصولِ الكلمات في أيّ لغةٍ موضوعٌ شاقٌّ وصعبُ المَنال، ولا يُمْكن الثّبات على عددٍ محدّد؛ بسببِ انفتاحِ اللّغاتِ بعضِها على بعضٍ وتداخُلِها.

وعلى أيّ حال، يَبقى موضوعُ (الاقتراض اللّغويّ) بين اللّغات من القضايا الشّائكة والمعقّدة، ومردُّ ذلك إلى كيفيّة إثبات انتقالِ اللّفظة من لُغة إلى أخرى؛ لأنّ اللّغات ليستْ عرباتِ قطارٍ يَجرّ بعضُها بعضًا، إنّما هي علاقات متداخلة، فالأمر يحتاج إلى تمهّل وتُؤَدَة في البتّ في الحكم اللّغويّ عند (الاقتراض اللّغويّ)، ولنا أنْ نَتخيّل حجمَ المعاناة والوقت المُسْتَنْزَف الذي يتحمّله اللّغويّ حين يتتبّع دورةَ حياةِ اللّفظة تاريخيّاً وانتقالها بين اللّغات!

زاوية

اللّغة العربيّة لغة علميّة

نصوص مُختارة

من تُراثنا العلميّ القديمِ والحديث

هُمام غصيب





نصوص مُختارة من تُراثنا العلميّ القديمِ والحديث

هُمام غصيب *

أشياءُ هذه الحياة
فيها الخُشونةُ كثرة، وفيها النّعومةُ قلّة
عن «في سبيلِ موْسوعة علميّة»
الدكتور أحمد زكي (١٣١٢- ١٣٩٥ هـ/ ١٨٩٤- ١٩٧٥ م)

هو أحمد زكي محمّد حسين عاكف؛ «أبو الكيمياء المصريّة». اشتُهر بنثره العلميّ النّاصع، وأسلوبه الأدبيّ العذب؛ فكان عالمَ الأدباء وأديبَ العلماء. أَسَّسَ: «الجمعيّة الكيميائيّة المصريّة» (١٩٣٨م)، و«المركز القوْميّ للبحوث» (١٩٤٧م). وكان رئيس التّحرير المؤسّس لمجلّة «العربي» الكويتيّة (١٩٥٨م حتّى وفاته). عُيِّن بعيْد الثّورة المصريّة رئيسًا لجامعة القاهرة؛ وكان من أوائل أعضاء مجمَع اللّغة العربيّة بالقاهرة، وعضوًا في مجْمَعَيْ دمشق وبغداد، ووزيرًا للشّؤون الاجتماعيّة (١٩٥٢م). من أبرز أعماله المؤلّفة، إلى جانب «في سبيل موْسوعة علميّة»: «مع الله في السّماء»، و«مع الله في الأرض» (تُوفّي قبل إتمامه). ومِن كتبه العلميّة المُترجمة: «بواتق وأنابيب»، و«قصّة الكيمياء». كما ترجم رواية «غادة الكاميليا أو مارغريت» لألكساندر دوماس الابن، ومسرحيّة «جان دارك» لجورج برناردشو.

* عضو مَجْمَع اللّغة العربيّة الأردنيّ؛ أستاذ الفيزياء النّظريّة.

لوْلا الخُشونةُ ما مَشَتْ قَدَمٌ على أرْضٍ، ولوْلا النعومةُ ما دارَ كوْكبٌ حوْلَ شمْسٍ

في الحياةِ نقولُ: هذا ناعِمٌ، وهذا خَشِنٌ.

وأنتَ في الحياةِ تُشيرُ إلى أحد النّاس، فتقولُ: إنّهُ ناعِمُ الطّبْعِ؛ وإلى آخرَ، فتقولُ: إنّهُ خَشِنُ الطّبْعِ. ونَميلُ بجِبِلّتِنا إلى النّاعِم، ونتحاشى الخَشِنَ.

والعيْشُ نُحِبُّهُ ناعِمًا، ونَكرَهُهُ خَشِنًا.

وكما في الأشياءِ التي نُدركُها بالتعقُّل والتّصوُّر، فكذلك في الأشياءِ التي نُدرِكُها بالحِسِّ واللّمْس. فأرضُ الجبَلِ وَعِرةٌ خَشِنة. والطّريقُ غيْرُ المُعبّدِ خَشِنٌ. ويُعبّدُ ويُطلى بالقار؛ فيُصبِحُ أقلَّ خُشونةً.

والمائدةُ، وسطحُها من خَشَبٍ خامٍّ، خَشِنةُ السّطْح. فإذا عالجْتَ هذا السّطْحَ بفأرةِ النّجّار، نَعُمَ. فإذا عالجْتَهُ بالأدهان، صارَ أكثرَ نعومةً. ...

السّطوحُ، إذن، في مَنزل أو سُوقٍ أو طريق، خَشِنةٌ عادةً حتّى تدخُلَها الصّنْعَةُ بالتّنْعيم. ونقولُ أحيانًا: بالصّقْل. وما الصّقْلُ إلّا زيادةُ تنعيم.

والسّطُوحُ كُلّما قَلّتْ خُشونةً، زادتْ نُعومةً. ولكنّها لا تكادُ تبلُغُ النّعُومةَ [مئة] في [المئة] في أُمورِ العيْشِ التي نَعرِفُها. وإليْكَ البَيان.

الاحتكاكُ يُسيْطِرُ على أشياءِ هذه الأرض، كالجاذبيّةِ تمامًا

هذا قالبٌ من آجُرّ، مِنْ قِرْميد، مِنْ طُوب: وضعْتَهُ على سطْحِ هذه المائدة.

ثُمّ أنتَ تُريدُ أنْ تُحرِّكَهُ على هذا السّطْحِ يَمينًا أو يَسارًا. إنّهُ لا يَتحرَّكُ إلّا إذا أنتَ بَذلْتَ لهُ شيْئًا مِنْ قُوّتِكَ يُحرِّكُه. ذلكَ أنّ بيْنَ السطْحيْنِ [المُتلامسيْن] -سطْحِ الطّوبة، وسطْحِ المائدة- احتِكاكًا بسببِ ما بهما من خُشونة، يَمنعُ مِنْ تحرُّكِ سطْحٍ على سطْحٍ. إنّها قُوّةٌ مانِعةٌ لا تظهَرُ إلّا عندما نُريدُ تحْريكَ سطْحٍ في اتّجاهٍ، هو اتّجاهُ ما بيْنَ السّطْحيْن.

وتستطيعُ أنْ تُقدِّرَ هذه القُوّةَ اللّازمةَ بأنْ ترْبطَ الطّوبةَ بكَفّة ميزان بخَيْطٍ يَدورُ حوْلَ بكَرَة. وتضعُ في الكفّةِ مِنَ الأوْزانِ حتّى يَأخُذَ قالَبُ الطّوبِ في الحركة. فالثِّقْلُ الذي بالكفّة (معَ وزْنِ الكَفّة) يُمثِّلُ القُوّةَ التي لَزِمتْ لتُقاوِمَ قُوّةَ الاحتِكاك. إنّهُ يُساوي قُوّةَ الاحتِكاك. ...

الاحتكاك عقبةٌ قائمةٌ دائمةٌ تُعوِّقُ الحركة

يَتبيّنُ هذا عند النّقل: عندما ننقلُ شيئًا مِنْ مكانٍ إلى مكان جرًّا وزحفًا. يُعوِّقُ [الاحتكاكُ] الحركةَ ما بيْن الشّيءِ الذي تجرُّه والأرض التي يُجرُّ عليها. وأنتَ تتغلّبُ على ذلك، جرًّا، بأنْ تبذلَ من القوّة ما يتغلّبُ على قوّةِ الاحتكاك التي تقومُ بيْن السّطحيْن عند الحركة. ...

ومعَ هذا، فالاحتكاك ضرورةٌ لازمةٌ لكلّ حركة

وتُدركُ هذا على الفوْر عندما تُفكِّرُ في كيف تمشي أنتَ على الأرض.

لوْلا خُشونةُ الأرضِ ما مشيْتَ؛ ولوْلا احتكاكٌ بيْن قدميْكَ وسطحِ الأرضِ الخَشن ما خَطوْتَ.

إنّكَ إذا مشيْتَ في الوحْل النّاعم، ما استطعْتَ مشيًا. إنّ قدَمَكَ تطلبُ في الوحْلِ النّاعم الأرضَ الصُّلبة التي تُمسكُ بها (تَحتكُّ بها)، فلا تجد؛ فلا تستطيعُ أنْ تتقدّمَ بجسمِك. وتنزلق، فتسقُطُ في الوحْل. وتُريدُ أنْ تقومَ، فتبحثَ عن جُزءٍ من الأرضِ صُلب، غيْرِ وحل. فإنْ وجدْتَه، ارتبطتْ قدمُكَ به (أي احتكّتْ)، واعتمدتَ عليه وقُمتَ؛ وإلّا فأنتَ في الوحْلِ باقٍ. ...



ولوْلا الاحتكاكُ ما استقرّ شيءٌ على شيءٍ

اختراع العجلةِ لمُعالجةِ الاحتكاك

إنّه مِن الاختراعاتِ القديمة التي كان لها شأنٌ في الحياة الإنسانيّة عميقٌ، لا يُضاهيه إلّا اختراعُ القِلاعِ والأشرعةِ للسّفن؛ وربّما كان اختراعُ العجلة أكبرَ خطرًا. فالعجلةُ مكّنت [الإنسانَ] من [التّنقُّل] على الأرض واختراق القارّات؛ والشّراعُ مَكَّنَ الإنسانَ مِن التّنقُّل في البحر وعبور المُحيطات. ...

تعليق

موْضوعُ هذا النّصّ هو ظاهرةُ الاحتكاك في الطّبيعة. والمثالُ الأبسطُ عليها هو الاحتكاك بيْن السّطح الخشن لجسمٍ ما وسطحٍ خشنٍ آخرَ يستقرُّ أو يتحرّك عليه الجسمُ. ففي حالة استقرارِ جسمٍ على سطحٍ ما، نقول: إنّه لا توجدُ حركةٌ نسبيّة بيْن السّطحيْن؛ ومِن ثَمَّ فالاحتكاك «سكونيّ». ولا يتحرّك الجسمُ على السّطح إلّا إذا بُذلت قوّةٌ عليه أكبرُ من قوّة الاحتكاك؛ وفي هذه الحالة، حيث تُوْجد حركةٌ نسبيّة بيْن السّطحيْن، نقول: إنّ الاحتكاك «حركيّ». وتُقاسُ شدّةُ الاحتكاك بنسبة تُسمّى «مُعاملَ الاحتكاك». فيكون هذا المُعاملُ أكبرَ بيْن طريقٍ جافٍّ وإطارات سيّارة منه بين هذا الطريق في يوْمٍ ماطر والإطارات نفسِها.

بالمُفارقة، تدور الأجرامُ السماويّةُ حوْل نفسِها مئاتِ الملايين من السّنين دون أنْ تنقصَ سرعة الدّوران. وما ذلك إلّا لأنّ الاحتكاك بيْن الجِرْمِ ومُحيطه الغازيّ يكاد يكون معدومًا. وهذه هي «النّعومة» التي يتحدّث عنها الدكتور أحمد زكي في عنوان النّصّ.

من التّراث



القَسَمُ في الشّعر الجاهليّ

حمدي منصور *

القَسَمُ أصْلُه مِن القَسَامة، يقول ابنُ سيدَه في مُعْجَم «المُحْكَم والمُحيط الأعْظم»: «القَسامة: الجماعةُ يُقْسمون على الشّيء أو يشهدون». واصطلاحًا: يمينٌ يُقْسمُ بها الحالفُ ليؤكّد بها شيئًا يُخْبِرُ عنه من إيجاب أو جحود، وهو جملةٌ يؤكّد بها جملة أخرى، والغايةُ منه توكيدُ ما يُقسم عليه من نفي أو إثبات.

ولأنَّ العرب في جاهليّتهم دانُوا بديانات مختلفة، وعبدُوا معبوداتٍ كثيرة، منها دياناتٌ سماويّةٌ كديانةِ إبراهيمَ -عليه السّلام- التّوحيديّةِ (الحنفيّة)، ومنها وثنيّةٌ كالأصنام وما سواها؛ فقد استَخْدَموا ألفاظًا وأدوات عديدة في القَسَم، من نحو:

«أَقْسَمْتُ»، كقولِ زهيرِ بن أبي سُلْمى المشهود له بالحكمة والحنكة:

فأَقْسَمْتُ بالبَيْتِ الذي طاف حَوْلَه
رجالٌ بَنَوْهُ مِنْ قُرَيْشٍ وجُرْهُمِ

و«حَلَفْتُ»، وقد يكون الحَلْفُ بالهدي الذي يَسوقُه إلى مَكَّةَ المكرّمةِ الحجيجُ أو العُمَّار، كما صَنَعَ أوسُ ابنُ حَجَر:

حَلَفْتُ بِرَبِّ الدّامياتِ نُحورُها
وما ضَمَّ أَجْمادُ اللُّبَيْنِ وَكَبْكَبُ

و«آليْتُ»، كقولِ طرفةَ بنِ العبد حينَ حَلَفَ يمينًا تَطيب بها نفسُه، فقال:

حَلَفْتُ بِرَبِّ الدّامياتِ نُحورُها
وما ضَمَّ أَجْمادُ اللُّبَيْنِ وَكَبْكَبُ
فآلَيْتُ لا يَنْفَكُّ كَشْحي بِطانَةً
لِعَضْبٍ رَقيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّدِ

وقد يَكون الحَلْف بلفظ «يمينًا»، وأصلُه أنْ يَضَعَ الحالفُ يَمينه في يمين الآخَر، كقول زهيرٍ في مدح هَرِمِ بنِ سنانٍ والحارثِ بن عوفٍ المُرِّيَّيْن:

يَمينًا لَنِعْمَ السَّيّدانِ وُجِدْتُما
على كُلِّ حالٍ مِنْ سَحيلٍ ومُبْرَمِ

* أستاذ الأدب الجاهليّ في الجامعة الأردنيّة.



وقد يكونُ القسم بالحروف، كـ«الباء» التي هي أصلُ حروفِ القسم، وهي صلةٌ للفعل المقدَّر (أَحْلِفُ أو أُقْسِمُ)، كقولِ عامر بنِ الظَّرِبِ العَدوانيّ وقدْ حَرَّمَ على نفسِه شربَ الخمرِ حياتَه حتّى يُواريَه جَدَثُه:

أَقْسَمْتُ باللهِ أَسْقِيها وأَشْرَبُها
حتّى يُفَرِّقَ تُرْبُ القَبْرِ أَوْصالي

فهو يُقسم باللّه -جلَّ جلاله- ألّا يَشربَ الخمرَ ولا يسقيها أحدًا حتّى يموت، وفي ذلك بيانُ إرادةٍ وتصميمٍ على صدقِ فعلِه.

و«الواو»، وهي أكثرُ أدواتِ القسم استعمالاً عند الشّعراء الجاهليّين، وتَدْخل على المحلوف به، كقولِ قَيْسِ بن الخطيم مخاطبًا محبوبتَه «أَثْلَة» كاشفًا عن مدى حبّه وصدقِ عواطفه، فهو مُحبّ صادقٌ غيرُ ذي كذب، فقد حلّ حبُّها سويداء قلبه ولامس شغافَ فؤاده وأصابه الهزالُ والضّمورُ والاصفرار، ولذا فهو يتمنّى لقاءها ويرجو رؤيتها، ولكنّ هيهات هيهات! وكيف يكون له ذلك وأهلُه حالُّونَ يثربَ وقد ارتحل أهلُها وحلُّوا في مكانٍ بعيدٍ قصيٍّ دونَه جبلُ سَرِف، يقول:

واللهِ ذي المَسْجِدِ الحرامِ وما
جُلِّلَ مِنْ يُمْنَةٍ لها خُنُفُ
إنّي لَأَهْواكِ غَيْرَ ذي كَذِبٍ
قَدْ شُفَّ مِنّي الأَحْشاءُ والشَّغَفُ
بَلْ لَيْتَ أَهْلي وأَهْلَ أَثْلَةَ في
دارٍ قَريبٍ مِنْ حَيْثُ تَخْتَلِفُ
أيهاتَ مَنْ أَهْلُهُ بِيَثْرِبَ قَدْ
أَمْسى ومَنْ دُونَ أَهْلِهِ سَرِفُ

و«التّاء» التي هي بدلٌ مِن «الواو» لأنّها أضعفُ

حروفِ القسم، ولا تَدخلُ إلّا على اسم الجلالة (اللّه)، وفيها معنى التّعجّب، كقولِ ساعدةَ بنِ جُؤَيَّةَ الذي رأى استحالةَ الخلودِ والبقاء:

تاللّهِ يَبْقى على الأيَّامِ ذو حِيَدٍ

أَدْفى صَلُودٌ مِنَ الأَوْعالِ ذو خدَمِ

وللقَسَم قداسةٌ وأهمّيّةٌ ومهابة، ولذا فالمرْءُ عندَما يُقسم لا يَفعل ذلك مِن بابِ الرّفهِ والتّرف؛ بلْ ليُؤَكّدَ التزامَه وصدقَه وحرصَه على أن يَبرّ بقسمه ويلتزم به ويحفظه، فلا يَحْنَث به ولا يتبرّم منه، وإلّا لحقتْه الدّناءةُ والنّقيصة، ولازمه العارُ والشّنار، فلا يعود مَوثوقًا به ولا مُطْمَأَنًّا إليه فهو كاذبٌ غادر.

ومَن يَتتبّعُ أشعار الجاهليّين لا يعثرُ على قصيدةٍ واحدةٍ أو مقطّعة قَصرَها صاحبُها على القسم، بلْ نجد القسمَ يأتي في أثناءِ القصيدةِ وفي ثناياها، ولعلّ مِن أهمِّ ما كان الجاهليُّ يُقسم عليه ويَعْنى به «الوفاء والإخلاص»، سواء أكان ذلك لِمَن يُحبّ أم لِمَن يُحالف ويُعاهد.

فهذا الشّاعرُ عوف بنُ الأحوص يُقسم لِمَن يُحبّ أنّه سيبقى وفيّاً مُخْلِصًا لها، وأنّه لن ينالها منه ذمٌّ أو قدحٌ أو شَيْن، ولتوكيد ذلك يُقسم لها بالبيتِ الحرام وبشهرِ ذي الحجّةِ الذي تعظّمه العرب، وما يسوقونَه في حجّهم مِن هدي:

وإنّي والذي حَجَّتْ قُرَيشٌ

محارِمَهُ وما جَمَعَتْ حِراءُ

وشَهْرِ بَني أُمَيَّةَ والهدايا

إذا حُبِسَتْ تُضَرِّجُها الدِّماءُ

أَذُمُّكِ ما تَرَقْرَقَ ماءُ عَيْني

عَلَيَّ إِذَنْ مِنَ اللهِ العَفاءُ

وإذا كان الشّعراءُ الجاهليّون يُقسمون أيمانًا مغلّظةً ويَحلفون بما تقدّسه العربُ في جاهليّتها وتعظّمه في عبادتها، وفاءً لِمَن يُحبّون وإخلاصًا لِمَن يَعشقون؛ فهم كذلك يُعبّرون عن سخطهم على أعدائهم ويَصبّون جامَ غضبهم على مهجوّيهم، متّخذينَ القسمَ آليّةً يُؤكّدون بها السّخطَ والغضبَ الذي يَعتمل في صدورهم، ونارَ الحقدِ والضّغينة التي تَحترق في أفئدتهم، يقول طرفةُ بن العبد وقد استشاط غضبًا على الملك عمرو بن هند –ملك الحيرة– الذي أسرف في ظلمه وطغيانه وتجاوز في جبروته وسلطانه كلَّ حدٍّ راسمًا له صورةً هزليّةً قبيحة:

فلَيْتَ لنا مَكانَ المَلْكِ عَمْرٍو

رَغُوثًا حَوْلَ قُبَّتِنا تَخُورُ

لَعَمْرُكَ إنَّ قابُوسَ بنَ هِنْدٍ

لَيَخْلِطُ مُلْكَهُ نوكٌ كَثيرُ

فطرفةُ بنُ العبدِ يحتدُّ وتغلي مراجلُه فيهجو الملكَ هجاءً مريرًا فيه إقذاعٌ وتحقيرٌ شديدان، فالمَلِكُ يتّصفُ بالحمق والجهالة والسّفه والطّيش، ويَكشف الشّاعرُ سوءَ تصرُّفه في مُلْكه وإفساده في حكمه، فهو سادرٌ في غَيّه ولهوه.

ولمّا أَبْعَدَ المَلِكُ عمرو بنُ هند الشّاعرَ المتلمِّسَ الضُّبَعيّ عن العراق وطَرَدَه إلى الشّام، وَجَدْنا المتلمّسَ يُقسم باللّات والأنصاب، وكانَ العربُ يُعظّمُونها في الجاهليّة ويَجْعلونها مدارَ أيمانهم الغليظة ويعقدون بها عهودَهم لتوثيقها وتقويتها وتوكيدها وتمتينها.. نَجدُ المتلمِّس غاضبًا حانقًا لأنّ المَلِكَ وَضَعَ مِن نسبه فجعله كـ«السّاقط بين الحيَّيْن» وصيّره طريدًا، فأنّى له أنْ يَنجو مِن لسانِ الشّاعر وكيف له أنْ يفلت مِن هجوه! ولذا فهو يُقسم أيمانًا مغلّظة أنّ ذلك لا يكون، ونجدُه يَصبُّ جامَ غضبه على الملك ويهجوه أقذعَ هجاء وأفحشه، فينال مِن نسبه مِن جهةِ أمّه قائلاً:

أَطَرَدْتَني حَذَرَ الهِجاءِ ولا

واللَّاتِ والأَنْصابِ لا تَئِلُ

وَرَهَنْتَني هِنْدًا وعِرضُكَ في
صُحُفٍ تَلوحُ كَأَنَّها خِلَلُ
شَرُّ المُلوكِ وشَرُّها حَسَبًا
في النّاسِ مَنْ عَلِموا ومَنْ جَهِلوا
الغَدْرُ والآفاتُ شِيمَتُهُ
فافْهَمْ فعُرقوبٌ لَهُ مَثَلُ

وقد يَتبرّأ الشّاعرُ ممّا يُنْسَبُ إليه، ويَتَنَصّل ممّا يُرمى به، كما صنع النّابغة الذّبيانيّ لمّا اتُّهِمَ بخيانةِ النّعمانِ بن المُنْذِر مَلِكِ الحيرة والغدرِ به، فقال:

أَتاني أَبَيْتَ اللَّعْنَ أَنّكَ لُمْتَني
وتِلْكَ التي أَهْتَمُّ مِنْها وأَنْصَبُ
حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً
ولَيْسَ وَراءَ اللهِ لِلمَرْءِ مَذْهَبُ
لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنّي خِيانةً
لَمُبْلِغُكَ الواشي أَغَشُّ وأَكْذَبُ

فالشّاعرُ -بعدَ أنْ لازمه الهمُّ والنّصَبُ ولاحقه العناءُ والشّقاءُ ممّا رُمِيَ به- يُقسم باللّه، وليس بعد اليمين باللّه -عزّ وجلّ- للمرء مذهبٌ ولا مطلب، ولذا فعلى المَلِك أنْ يُصدّقه وينبغي عليه أنْ يَقبل اعتذارَه.

ونجدُ الشّاعرَ نفسَه مرّةً ثانيةً يُقسم بالبيتِ العتيقِ أنّه بريءٌ ممّا نُسِبَ إليه وأنّه ما خان الملكَ ولا غدر به ولو بكلمةٍ واحدة:

فَلا لَعَمْرُ الذي مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ
وما هُريقَ على الأَنْصابِ مِنْ جَسَدِ
ما قُلْتُ مِنْ سَيِّئٍ مِمّا أُتيتَ به
إذَنْ فَلا رَفَعَتْ سَوْطي إِلَيَّ يَدي

واعتذاريّاتُ النّابغة للنّعمان كثيرة، ولا تخلو واحدةٌ منها مِن قسمٍ أو يمين، وفيها كلّها يتنصّل الشّاعرُ ممّا قيل فيه ويُقسم أنّه باقٍ على العهدِ لَمْ يَخُنِ النّعمانَ ولم يغدر به.

وقد يُقسم الشّاعرُ ألّا يفعل شيئًا ممّا يشينه أو يحطّ مِن مروءته ويقلّل مِن شأنه ومهابته، كشربِ الخمرِ أو إتيانِ دُورِ صاحباتِ الرّايات، فهذا قيسُ ابنُ عاصم مثلاً يُحرّم على نفسه الخمرَ لأنّها تسلبه عقلَه وتورثه الضّعفَ وعداوةَ الصّحب، يقول:

لَعَمْرُكَ إنَّ الخَمْرَ ما دُمْتُ شارِبًا
لَسالِبَةٌ مالي ومُذْهِبَةٌ عَقْلي
وتارِكَتي مِنَ الضِّعافِ قُواهُمُ
ومُورِثَتي حَرْبَ الصَّديقِ بِلا تَبْلِ

فالشّاعرُ يُقسم بحياته ألّا يَشرب الخمر، وكذلك يَفعل الشّاعرُ مقيسُ بنُ صبابةَ الكنانيّ السّهميّ الذي ذَهَبَ عقلُه ذاتَ مرّة وقد سَكِرَ فأَخَذَ يَخُطُّ ببوله في الرّمل ويحدّث بعيرَه، فلمّا أفاق مِن سكرته وأُخْبِرَ بما فَعَلَ أَقْسَمَ باللّه أنْ يُحرّمها على نفسه وألّا يشربها ثانية، وأَلْزَمَ نفسَه بعدمِ الرّجوع إليها حالفًا بلفظِ الجلالة:

رأيتُ الخمرَ طيّبةً وفيها
خِصالٌ كُلُّها دَنَسٌ ذَميمُ
فَلا واللهِ أَشْرَبُها حَياتي
طَوالَ الدَّهْرِ ما طَلَعَ النُّجومُ
سَأَتْرُكُها وأَتْرُكُ ما سِواها
مِنَ اللَّذّاتِ ما أَرسى يَسُومُ

ويَمتنع عفيفُ بن معد يكرب عن مجالسةِ النّدامى وشربِ الخمر، لعزّةِ حسبه ورفعةِ نسبه، فآباؤه كرامٌ وأخواله أعزّة، فقد جَمَعَ المجدَ من طرفيْه أعمامًا وأخوالاً، فهو أرفعُ مِن مجالسِ اللّهو وأسمى من مجالسةِ أهلِ اللّذاذة والشّراب، يقول حالفًا باللّه سبحانه وتعالى:

فَلا واللهِ لا أُلْفى وشَرْبًا

أُنازِعُهُمْ شَرابًا ما حَييتُ

أَبى لي ذاكَ آباءٌ كِرامٌ

وأَخْوالٌ بِعِزِّهِمُ رُبيتُ

ومن الموضوعات التي شغلتِ الشّعراءَ وأكثروا من القسم فيها؛ طلبُ الأخذِ بالثّأرِ والتّحريض عليه، لأنّ عدمَ أخذِه فيه من الهوانِ والمذلّةِ الكثير، ولا يَسكتُ عن ثأره ويَنكل عن دمه إلّا كلُّ جبانٍ رعديد. فهذا الحارثُ ابنُ عُبادٍ من بني ضُبَيْعة، الذي اعتزل حربَ ابْنَي وائل بكر وتغلب إلى أنْ قَتَلَ المهلهلُ التّغلبيُّ ابنَه بُجَيْرًا شامتًا مزدريًا وهو يقول: «بُؤْ بِشِسْعِ نَعْلِ كُلَيْب»! فقال الحارث مُخاطبًا بني تغلب قوم كليْب مُهدِّدًا مُتَوَعِّدًا عازمًا على الثّأر طالبًا الدّم، مُقْسِمًا بربِّ القِلاص التي تُساق إلى مِنًى هديًا:

لا تَحْسَبوا أَنَّنا يا قَوْمُ نُفْلِتُكُمْ

أو تَهْرُبونَ إذا ما أَعْوَزَ الهَرَبُ

كَلّا ورَبِّ القِلاصِ الرّاقِصات ضُحًى

تَهْوي بِها فِتْيَةٌ غُرٌّ إذا انْتُدِبُوا

ومرّةً ثانيةً نجد الحارث بن عبادٍ يُقسم بربّ الرّاقصات إلى منًى وبربّ الحلّ والإحرام، يُقسم يمينًا مغلّظةً لا رجعةَ عنها أنّه سينتقم من تغلب شرَّ انتقام، وسيجعل نساءهم تبكي رجالهم القتلى حاسراتِ الرّؤوس لاطماتِ الخدود:

أَفَبَعْدَ مَقْتَلِكُم بُجَيرًا عُنْوَةً

تَرْجُونَ وُدًّا آخِرَ الأيّامِ

كَلَّا وَرَبِّ الرَّاقصاتِ إلى مِنًى

كَلَّا وَرَبِّ الحِلِّ والإِحْرامِ

حَتّى تُقِيدُونا النّفوسَ بِقَتْلِهِ

ونَرُومَ في الشَّحْناءِ كُلَّ مَرامِ

وتَجُول رَبّاتُ الخُدورِ حَواسِرًا

يَبْكِينَ كُلَّ مُغاوِرٍ ضِرْغامِ

وكذلك نجد الشّعراء الجاهليّين عندما يَصفون الكرماء الأجواد والأسخياء المنفقين الذين يُكرمون الضّيوف، ولا سيّما في أوقاتِ الضّنك والشّدّة وأيّام القحط والبرد، عندما تهبّ الشّمأل فتغدو الأرض بيضاء كأنّما رُشَّت بالملح؛ نجد الشّعراء يُقسمون أيمانًا تؤكّد كرمَ هؤلاءِ الأجواد وسخاءهم، يقول زُهيْر:

تاللهِ قَدْ عَلِمَتْ سَراةُ بَني

ذُبْيان عامَ الحَبْسِ والأَصْرِ

أنْ نِعْمَ مُعْتَرَكُ الجِياعِ إذا

خَبَّ السَّفيرُ وسابِئُ الخَمْرِ

ويَقول لبيد بنُ ربيعةَ العامريّ:

فَلا وأَبيكَ ما حَيٌّ كَحَيٍّ

لِجارٍ حَلَّ فيهِمْ أوْ عَديمِ

ولا للضَّيْفِ إذْ طَرَقَتْ بَليلٌ

بِأَفْنانِ العِضاهِ وبالهَشيمِ

ولو ذهبْنا في تتبّعِ أضْرُبِ القسم وأدواته وصيغه والمجالات التي كان شعراءُ الجاهليّة يستخدمونه فيها، وبسطْنا القولَ في ذلك؛ لطال بنا الأمرُ واحتاج منّا إلى تسويدِ صفحاتٍ طوالٍ لتجليةِ القَسَم واستعمالاته من جوانبه جميعًا.

وخلاصة القول أنّ الشّعراء في العصر الجاهليّ، كانوا يُقسمون بما يُعظّمون من معبوداتهم، وهم يَرَوْنَ أنّ البيت العتيق والحرم المقدّس من أعظم ما يُقسمون به، وهم يفعلون ذلك عندما يكون القسم واقعًا على مُعَظَّم عندهم، وقائمًا على ذي شأنٍ كبيرٍ في حياتهم. ويبقى القسمُ بلفظِ الجلالةِ هو الأعظمُ عندهم جميعًا، يقول أوسُ بن حَجَر:

وباللّاتِ والعُزّى ومَن دانَ دِينَها

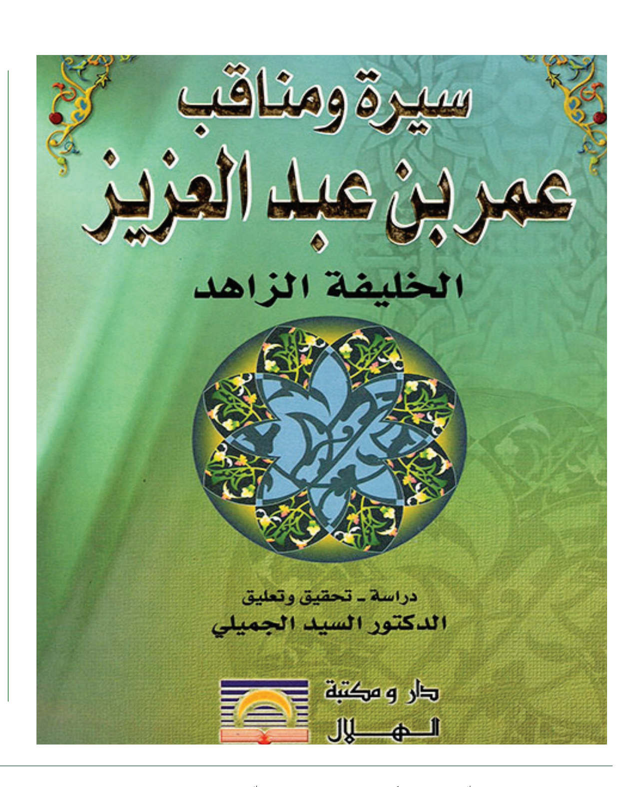
وباللهِ إنَّ اللهَ مِنْهُنَّ أَكْبَر

خُطْبَةُ عُمَرَ بنِ عَبْدِ العزيز لَمَّا وَلِيَ الخِلافة

بَيْنَ السِّياسَة الشَّرْعيَّة وسياسَة الاحْتراف البَشَرِيّ

نبيل احريز *

رَوى الآجُرِّيُّ (ت ٣٦٠ هـ) في كتابه «أخبارُ أبي حفص عُمَرَ بن عبد العزيز رحمه الله وسيرته»، وابنُ الجَوْزيّ (ت ٥٩٧ هـ) في «سيرةُ ومناقبُ عمر بن عبد العزيز الخليفة الزّاهد»:



"لمّا دَفَنَ عمرُ بن عبد العزيز سليمانَ بن عبد الملك وخَرجَ مِن قبْره، سَمِعَ للأرض هدّةً أو رَجّة، فقال: ما هذه؟! فقيل: هذه مراكبُ الخلافة يا أمير المؤمنين، قُرِّبَتْ إليك لتَرْكَبَها. فقال: ما لي ولها! نَحُّوها عنّي! قَرِّبوا إليَّ بغلتي. فَقُرِّبَتْ إليه بغلتُه فرَكِبَها، فجاءه صاحبُ الشُّرْطة يَسير بين يديْه بالحَرْبة، فقال: تَنَحَّ عنّي! ما لي ولك! إنّما أنا رجلٌ من المسلمين. فسار وسار معه النّاسُ حتّى دخلَ المسجدَ فَصَعِدَ المِنبرَ واجتمع إليه النّاس، فقال:

أيُّها النّاس! إنّي قد اِبْتُليتُ بهذا الأمر عن

* رئيسُ قسْم النّشر والتَّحرير- مَجْمَع اللّغة العربيّة الأردنيّ.

غير رأيٍ كان مِنّي فيه ولا طُلْبَةٍ له ولا مشورةٍ من المسلمين، وإنّي قد خَلَعْتُ ما في أعناقكم من بَيْعتي، فاختاروا لأنفسكم. فصاح النّاسُ صَيْحَةً واحدة: قد اخترناكَ يا أميرَ المؤمنينَ ورضيناك؛ فَلِ أَمْرَنا باليُمْن والبركة. فلمّا رأى الأصواتَ قد هَدَأَتْ ورَضِيَ النّاسُ به جميعًا:

١- حَمِدَ اللّهَ وأثنى عليه، وصلّى على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وقال:

٢- أُوْصِيكُمْ بِتقوى اللّه؛ فإنَّ تقوى اللّهِ خَلَفُ كُلِّ شيء، وليس مِن تقوى اللّهِ عزَّ وجَلَّ خَلَف.

٣- واعْملوا لآخرتكم؛ فإنّه مَن عَمِلَ لآخرته كفاهُ اللّهُ تبارك وتعالى أمْرَ دنياه.

٤- وأَصْلِحوا سرائركم يُصْلِحِ اللّهُ الكريمُ علانيتكم.

٥- وأكْثِروا ذِكْر الموت، وأحْسِنوا الاستعداد قبل أنْ يَنزل بكم؛ فإنَّه هادِمُ اللَّذّات. وإنَّ مَن لا يَذْكُرُ مِن آبائه -فيما بينه وبين آدم عليه السّلام- أبًا حيًّا لَمُعْرِقٌ له في الموت.

٦- وإنّ هذه الأُمّةَ لمْ تَختلفْ في ربّها عزَّ وجلّ، ولا في نبيّها صلّى اللّهُ عليه وسلّم، ولا في كتابها، وإنّما اخْتَلَفوا في الدّينار والدّرهم. وإنّي واللّهِ لا أُعْطي أحدًا باطلاً، ولا أَمْنَعُ أحدًا حقًّا.

ثمّ رَفَعَ صوته حتّى أَسْمَعَ النّاسَ فقال:

٧- يا أيُّها النّاس! مَن أطاعَ اللّهَ فقد وَجَبَتْ طاعتُه، ومَن عصا اللّه فلا طاعةَ له. أطيعوني ما أطعتُ اللّهَ عزَّ وجلّ، فإذا عصيتُ اللّهَ فلا طاعةَ لي عليكم».

اتّخذَ عُمَرُ هذه الخطبة وسيلةً أُولى في ممارسته سُلْطَتَه، فقد ارتبطتِ الخطبةُ بالسّلطة والسّلطةُ بالخطبة، سواء أكانت السّلطةُ اجتماعيّة أم ثقافيّة أم سياسيّة، والخطابةُ مهارةٌ يَلْزم السّيّدَ إتقانُها، فبها يُؤسِّس لسلطته ويؤثّر في جمهوره، حتّى أَلِف النّاسُ ذلك فصار انقيادهم للخطيب سائغًا لارتباط الخطابة في نفوسهم بالسّلطة؛

الخطابةُ مهارةٌ يَلْزم السّيّدَ إتقانُها، فبها يُؤسِّس لسلطته ويؤثّر في جمهوره، حتّى أَلِف النّاسُ ذلك فصار انقيادهم للخطيب سائغًا لارتباط الخطابة في نفوسهم بالسّلطة

يَقولُ الشّيخ محمّد أبو زهرة في كتابه «**الخطابة** أصولُها. تاريخها في أزهر عصورها عند العرب»: «والخطابة هي الدّعامة التي قامت عليها الانقلابات العظيمة والثّورات الكبيرة التي نقضتْ بنيان الظّلم وهدمتْ قصور الباطل، فهذه الثّورةُ الفرنسيّة قامتْ على الخطابة...وفي الحكومات الشّوريّة يكون الخطباء هم الغالبين؛ تَصْدع الأمّةُ بإشاراتهم وتَخضع لسلطانهم، لأنّ الغلبَ في ميدان الكلام والسّبقَ في حلبة البيان لهم...وفي ذلك نشرٌ لسلطانهم ورفعة لهم».

فعُمَرُ الذي أُوْكِلَ إليه أمر الأمّة، يَتّكئ على خطبته وسيلةً لحمل النّاس على السّيْر نحو المبادئ العامّة التي سيُحدّدها وفق رؤيته الفكريّة وفلسفته في طبيعة الحكْم والسّلطان التي أَحْدَثَت انقلابًا هائلاً في تاريخ الدّولة الإسلاميّة كما بَيَّنَ الدكتور عماد الدّين خليل في كتابه «ملامحُ الانقلاب الإسلاميّ في خلافةِ عمرَ بن عبد العزيز».

وإنّ قضيّةَ خُطبته الأساسيّةَ هي (مُقوّماتُ مشروع الخلافة العُمَريّ)، لكنّه لمْ يُؤسِّسْ لمعالم سلطة سياسيّة تقليديّة زمنيّةً تسلّطيّة تقوم على المصالح والاحتراف البشريّ في الحكم والإدارة لتثبيت المُلْك والسُّلطان وإخضاع الجماهير وإقصاء المُعارِضين، على النّحو المتوقَّع الاعتياديّ من أيِّ سلطة بشريّةٍ كما بَيَّنَ سالمُ القمّوديّ في كتابه «سيكولوجيّةُ السّلطة»؛ فلمْ يتحدّثْ عمرُ عن سياسته الذّاتيّة في الحكم وإدارة الدّولة وتقدير مصالحها بوصفه سُلطانًا تقليديّاً، بل حَدَّدَ الدّعائم الأساسيّة للمشروع الإسلاميّ الذي يُؤسِّسُ لتكوينِ الفرْد المُسْلِم والمجتمع المسلم والأمّة المسلمة؛ مشروعٌ يسير وفقَ النّواميس الإلهيّة ومبادئ الشّريعة الإسلاميّة، مشروعٌ تَتّصلُ فيه الأرضُ بالسّماء، وتكون الدّولةُ وفقَه خادمةً للدّين لا العكس.

وبينَ النّصّ وفاتحته علاقةٌ تفاعليّة مُوَجِّهة للقراءة نحوَ إطارٍ ثقافيٍّ معيَّن، فهي ليستْ مجرّد مدخلٍ شكليٍّ غيرِ ذي أثر، فيظلُّ القارئَ مُسْتَحْضِرَها، يقول ابن رشيق القيروانيّ (ت ٤٥٦هـ) في كتابه «العُمْدة في محاسن الشّعر وآدابه»: «...حُسْن الافتتاح داعيةُ الانشراحِ ومطيّةُ النّجاح».

فبدْءُ عُمَرَ خطبتَه –التي يَفتتح بها عهدَه في قيادة الأمّة الإسلاميّة– بحمْد اللّه والثّناء عليه والصّلاة والسّلام على رسوله محمّدٍ صلّى اللّه عليه وسلّم:

١- فيه إشعارٌ ولفتٌ لانتباه المتلقّينَ إلى اتّباعِ القرآن الكريم؛ فاللّه تعالى بدأ فاتحةَ كتابه بالحمد، وبدأ حديثَه عن خلْقه السّماوات والأرضَ في سورة الأنعام بالحمد، وآذنَ إنزالَ كتابه في بداية سورة الكهف بالحمد أيضًا. فحمدُ (اللّه) الذّات الإلهيّة الأصلِ الأوّل الذي صدرتْ عنه مبادئُ التّشريع الإسلاميّ كلُّها، والصّلاةُ والسّلامُ على النّبيّ المبلِّغ عن اللّه شرعَه والقائدِ السّياسيّ التّربويّ الأوّل؛ هما معًا بنيةُ النّصّ الأولى الأساسيّة في خطبة عمر، ونقطةُ الارتكاز التي استفتحَ بها ودارتْ حولَها بنى النّصِّ كلُّها، فهَيّأ الأفهامَ لتلقّي ما سيليها من أفكار؛ وهو ما يُشعرُ المستمع بانسجام هذا النّصّ مع ما جاء في القرآنِ الكريم، فيُقبلَ عليه ويُحسِن استقباله مطمئنَّ النّفس، وقد كان (اللّه) حاضرًا في البنى النّصّيّةِ التّاليةِ كلِّها.

٢- وفيه إشعارٌ أيْضًا بأنّه سيسيرُ في مشروعه السّياسيّ مُهْتَديًا بهذين الأصلين العظيمين؛ فاللّه سبحانه أنزل كتابه هدًى للنّاس، ورسولُه -عليه السّلام- رحمةٌ للعالمين هادٍ إلى طريق الرّشاد لا جابٍ أموالاً ولا سلطانٌ قاهر.

٣- وبهذا البدْء جَرَتْ سنّةُ النّبيّ -عليه السّلام- والخطباءِ من بعدُ، حتّى صار ذلك تقليدًا راسخًا مألوفًا؛ فاعْتِيدَ أنّ افتتاح الكلام بهذه العتبة النّصّيّة سيَعْقبُه حديثٌ مهمّ في أمور الدّين والدّنيا، فيُحسنُ المتلقّونَ الإصغاء. وبما أنَّ عمر مُتَّبِعٌ لا مُبْتَدِعٌ كما صَرَّحَ بذلك في غيْر موقف، فإنّ بدْأه بهذا إشعارٌ أنّه أوّلُ مَن يَلْتزمُ القرآن والسّنّة وسيرة سلف الأمّة الصّالحين في الحكم والإدارة، فتُحالُ أذهانُهم ونفوسُهم إلى ذلك العهدِ الذي شَهِدَ البناءَ والتّكوينَ والتّمكين، فيكونُ بهذا الافتتاح قد أَحْسَنَ المدخلَ إلى النّصّ نفسيّاً وعضويّاً.

ثُمّ شَرَعَ عمرُ يَرسم معالم مشروعه السّياسيّ وفلسفته في طبيعة الحكم والسّلطة وآليّة ممارستها، ومن المعلوم أنّ ذلك يَرتدّ إلى الأسس النّفسيّة والفكريّة لصاحب السّلطة، فكانتْ بنية نصِّ خطبته الثّانيةُ: «أوصيكم بتقوى اللّه؛ فإنّ تقوى اللّه خَلَفُ كلّ شيء، وليس من تقوى اللّه عزَّ وجلّ خلَف»، بَدأها بـ(أوصيكم)، رغمَ أنّه الخليفة مَن يأمر فيطاع، فقد يُتوقَّعُ أنْ يقول (آمُرُكم) أو (عليكم) أو يُهدّدَ بجعْلِ عاليها سافلَها كما الكثيرُ من الولاة الأمويّين قبلَه، فثمّة فرقٌ كبير بينَ السّياسةِ التي تقوم على إخضاعِ المجتمع ليكونَ صنيعةَ شخصٍ ما، والسّياسة التي تقوم على قيادةِ المجتمع.

يُؤمن عمرُ أنّ سياسةَ الحكم الإسلاميّة سياسةُ دعوةٍ وإرشاد في المقام الأوّل، لا قهرٍ وغطرسة، وهو بهذه اللّفظة «أوصيكم» يُحيلُ إلى أجواءِ الوصيّة التي يَغلِبُ عليها أنْ تكون من الأب لابنه رحمةً وحرصًا.

فالخليفةُ هنا داعٍ رحيمٌ حريص، يُحيلُ إلى المبدأ الذي أَصَّلَهُ الرّسولُ عليه السّلام، وسار عليه خلفاؤه الرّاشدون؛ وهو أنّنا دُعاةٌ لا جُباة. ولعلّ استعماله هذه اللّفظةَ

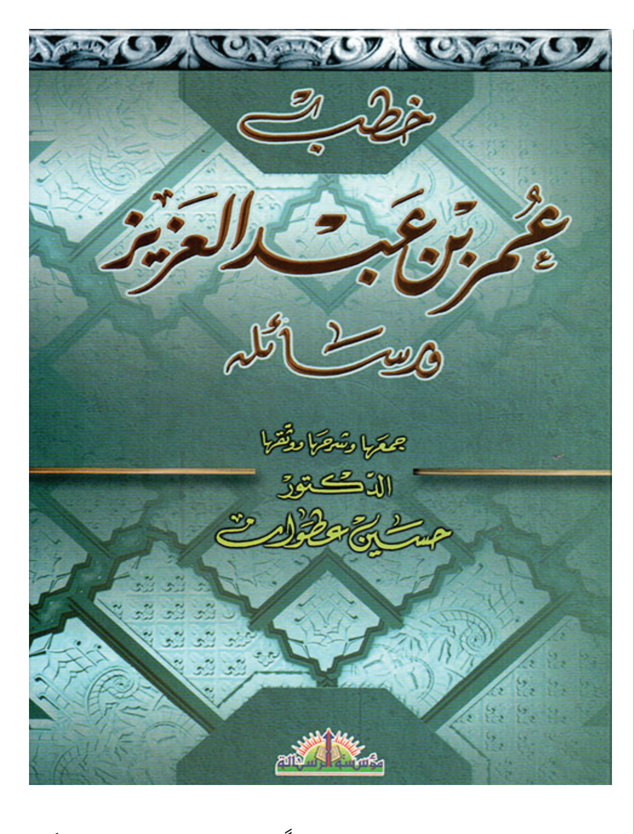
> يُؤمن عمرُ أنّ سياسةَ الحكم الإسلاميّة سياسةُ دعوةٍ وإرشاد في المقام الأوّل، لا قهرٍ وغطرسة

(أوصيكم) فعلاً مضارعًا لا أمرًا يُنبئُ عنْ نفسيّةِ حاكم داعيةٍ في رؤيته لطبيعة السّلطة التي تبدأ بالنّصِّح والكلمة الطّيّبة وتَستمرُّ في هذا النّهج لا تَحيد عنه إلى طبائع الاستبداد. ولطالما كانَ يَذْكُرُ ذلك ويُذكّرُ ولاتَه به في خطبه ورسائله ووصاياه، وقد جَمَعَها الدكتور حسين عطوان في كتابٍ سمّاه «خُطب عمر بن عبد العزيز ورسائله»، وكانت مدار أطروحة الدكتور مفلح الفايز التي وَسَمَها بـ«آثار عمر بن عبد العزيز الأدبيّة تحقيق ودراسة».

تأتي هذه الوصيّةُ بعد حمده اللّهَ الذي يُذكّرُ المتلقّي بنعمه العظيمة، فناسب أنْ يُوصي بعدَه مباشرةً بتقوى اللّه المُنْعِم، وهو ما يؤكّد أنّ بدْأه بالحمد ليس مجرّدَ التزامٍ شكليّ بتقليدٍ فنّيّ متّبَع.

تقوى اللّه -التي تُعَدُّ جهازَ مناعة ذاتيًّا داخليًّا لكلِّ مُسلم يُراقب أحواله كافّةً وفقَ شرعِ المُتَّقى سبحانه- هي الوسيلةُ النُّجعى في ضبْطِ تصرّفات الإنسان مع نفسه وغيره، وللدكتور محمّد البوطيّ كتابٌ حول هذا الموضوع المهمّ موسومٌ بـ«تجربة التّربية الإسلاميّة في ميزان البحث». وطالما طَوَّرَت الدّولُ قديمُها وحديثُها مِن وسائلِ الضّبط الإداريّ الخارجيّ والرّقابيّ ما طوّرتْ ضمانًا لتحقيق الأمن وضبْط حركةِ المجتمع لحماية الصّالح العامّ، لكنّ الفاسدينَ يَخلقونَ مِن وسائل الإفساد ما تحار به العقول!

فعمرُ الخليفةُ العالمُ الدّاعي يُدرك أنْ لا خلاصَ بالحديد والنّار الذي مِن شأنه أن يُخضعَ القالبَ لا القلبَ، بل ببناء الإنسان الذي يَتّقي اللّهَ



ويُراقبُه فيضبط نفسَه ذاتيًّا، كيف لا وهو -لا بُدَّ- واعٍ بحكايةٍ نسبه لجدّه عمرَ الفاروق رضي اللّه عنه، التي نقلتْها الأخبارُ وأثبتتْ عمليًّا نجاعةَ منهج التّربية الإسلاميّة في بناء الإنسان المتّقي الضّابطِ سلوكَه حتّى لو (تعطّلتِ الكاميرات!) وغابتِ الرّقابة الإداريّة؛ ومؤدّاها أنّه لمّا كان يتعسّسُ في اللّيل طُرق المدينة سَمِعَ قُبَيْلَ الفجر أُمًّا تَأمر ابنتَها -التي نشأت في المجتمع الإسلاميّ الأوّل- أنْ تَخلط اللّبن بالماء فأبَتْ، فألحّتْ أمُّها متذرِّعةً أنّ الخليفة لا يراها فَرَدَّت الفتاةُ بـ(يا أمّتاه! واللّه ما كنتُ لأُطيعه في المَلا، وأعصيَه في الخلا، وإذا كان عُمرُ لا يرانا فإنّ اللّه يرانا)، فما كان مِن ابن الخطّاب إلّا أنْ زَوَّجَ ابنه عاصمًا بها، فأنجبا ليلى التي تزوّجَها عبدُ العزيز بنُ مروانَ فأنجبا

> تزكية النّفس وتعاهدها بالمراقبة الذّاتيّة والتّقويم والإصلاح، مِن أهمّ الأمور التي تسهم في إعداد الإنسان المسلم

عمرَ بن عبد العزيز رحمهم اللّه.

وبعدَ وصيّته بتقوى اللّه في الدّنيا المرحلةِ الأولى من حياةِ الإنسانِ، جاءتِ البنيةُ النّصّيّةُ الثّالثة للمرحلة الآخرةِ المَؤُولِ إليها، فقال: «واعملوا لآخرتكم؛ فإنّه من عملَ لآخرته كفاه اللّه تبارك وتعالى أمرَ دُنياه»، مُبْتَدِئًها بصيغة الأمر المباشر (اعملوا)، فليس الإيمانُ بالآخرة مجرّدَ معرفة قلبيّة بل عملٌ جادّ. ولأنّه يعلم أنّ ما تَحْبَلُ به الدّنيا من مكارهَ وآمالٍ يَشغل عن العملِ للآخرة؛ طمأن بحتميّةِ كفالة (اللّه) كلَّ ذلك.

وإنّ تزكيةَ النّفسِ وتعاهدها بالمراقبة الذّاتيّة والتّقويم والإصلاح، من أهمّ الأمور التي تسهم في إعداد الإنسان المسلم، وإنّ صلاح النّفوس شرطٌ إلهيّ لإصلاح الواقع المَعيش، فـ﴿**إنّ الله لا يُغيِّرُ ما بقوم حتّى يُغيِّروا ما بأنفسهم**﴾، و﴿**قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها**﴾، ولذا أرشد عمرُ إلى هذا الأمرِ المهمّ فقال في البنية النّصّيّة الرّابعة: «وأصلِحوا سرائركم يُصلح اللّهُ الكريم علانيتكم»، مبتدئًا بـ(أصلحوا) شرطًا إنْ تحقّق تحقّقَ وعدُ اللّه بإصلاح علانيتنا، وإصلاحُ العلانية هو ما يأملُه متلقّو خطابه، وهنا أيضًا يردّ الأمرَ إلى (اللّه) الذي افتتَح خطابَه بحمدِه فهو الخيطُ الذي يَنتظم بنى النّصّ كلَّها.

ومن المعلوم أنّ فقدان الحياة بما فيها من ملذّاتٍ وما يَعقبُ ذلك تحتَ التّراب، من أكثر المخاوف التي تَجزعُ لها النّفس البشريّة، فالتّذكيرُ به يُسهم في ضبط سلوكها فتمتنع عن المحرَّمات وظلم الغير، ولذا جعلَ عمر بنيةَ خطبتِه الخامسةَ: «وأكثِروا ذِكْرَ الموت، وأحْسِنُوا الاستعدادَ قبلَ أنْ يَنزِلَ بكم؛ فإنَّهُ هادمُ اللّذّات».

> فقدان الحياة بما فيها من ملذّات وما يَعقبُ ذلك تحتَ التّراب، من أكثر المخاوف التي تَجزعُ لها النّفس البشريّة، فالتّذكيرُ به يُسهم في ضبط سلوكها

وبإبانة عمرَ معالمَ مشروعه الإصلاحيّ القائم على «السّياسة الشّرعيّة» التي تبدأ بتربية الإنسان إيمانيًّا، خطوةً أولى في إصلاح المجتمع والأمّة والدّولة في شتّى المجالات، يُلحظُ أنّ مشروعه هذا شملَ مراحلَ حياة الإنسان كلّها ابتداءً بالإنسان نفسه («أوصيكم بتقوى اللّه»، و«أصلحوا سرائركم»)، ثمّ أموره الدّنيويّة «كفاه اللّه أمر دنياه»، ثمّ مجتمعه عامّةً «يصلح اللّه الكريم علانيتكم»، مرورًا بمرحلة البرزخ (الموت) «وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم»، وصولاً إلى آخرته «وأصلحوا آخرتكم».

فالحكومةُ الإسلاميّة في نظر عمر ليس همُّها توفير احتياجات مواطنيها من الطّعام والشّراب والدّواء والمسكن فقط، مُهملةً الجوانبَ الرّوحيّة، فتكثرَ الأمراضُ النّفسيّة والاجتماعيّة والجرائم والانتحار والمخدّرات والتّشرّد والشّذوذ...إلخ؛ الأمر الذي يُؤسّس لانهيارٍ شامل في الدّين والدّنيا والدّولة والحضارة، بل هي التي تهتمّ بالإنسان روحًا وبدنًا، دينًا ودنيا، لتقوده نحوَ الخير. ولشيخ الإسلام ابنِ تيميّة كتابٌ حول هذا الموضوع عنوانُه «السّياسة الشّرعيّة في إصلاح الرّاعي والرّعيّة».

وبطرح عمرَ السّابق، يكون قد ردّ الأذهان إلى عهد الإسلام الأوّل. ولعلّ السّؤال الذي يَتوق إلى إجابته المتلقّون: ما موقفُ عمرَ من التّغيّرات التي ابتُدِعتْ بعدُ؟! فجاءت بنيةُ الخطبة السّادسة مُنْبِئَةً عن فطنته لِما يَشغل الأذهان: «وإنّ هذه الأمّة لمْ تختلف في ربّها عزّ وجلّ، ولا في نبيّها صلّى اللّهُ عليه وسلّم، ولا في كتابها، وإنّما اختلفوا في الدّينار والدّرهم. وإنّي واللّه لا أُعطي أحدًا باطلاً، ولا أَمنع أحدًا حقّاً»؛

فثمّةَ تحاورٌ خفيّ نشطٌ بينه وبين جمهوره الذين وَدَّعوا السّلطان السّابق النّاهجَ نهْج الحكْم الأمويّ «سياسة الاحتراف البشريّ»، ونفوسُ كثير منهم توّاقة إلى العهد العمريّ الجديد، فالموقفُ الآن موقفٌ سياسيّ، وأهمُّ ما ترنو إليه السّياسة تحسينُ المسير والمصير الإنسانيّ، فهم يَعرفون عمرَ سيرتَه الحسنة التي تُمثّل الفكرَ الإسلاميّ الرّاشديّ النّاقمَ على الملْك العضود، فجاء خطابه مُصيبًا ما يَشغل أذهانهم؛ فتحدّث عن الفكرة التي يُؤمن بها لا عن شخصه حاكمًا سلطانًا، وهي (إقامة شرع اللّه) وفق ما أراد اللّهُ لا الأهواء البشريّة ومصلحة السّلطة الزّمنيّة.

وقد تَضمّنتْ هذه البنيةُ أوّل ظهور لعمر حاكمًا سُلطانًا صراحةً: «وإنّي واللّهِ لا أُعطي أحدًا باطلاً، ولا أمنع أحدًا حقّاً»، بعد بيانه الأسسَ التي سيَصدر عنها في حكمه (الالتزام بشرع اللّه وسنّة نبيّه، والتّقوى، وحسن النّيّة، وابتغاء ثواب الآخرة)، فبُروز ذاته هنا تحديدًا يُنبئ بوضوح أنّه يرى نفسه محكومًا معهم لا حاكمًا عليهم فقط، وأنّ سلطته ليست مطلقة بل تابعة لشرع اللّه.

كان هذا الظّهور، لأنّ الأمر المُعالَج في هذه البنية يتعلّق بالمال قوام الحياة أهمّ أدوات السّلطة، وقد كان الإنفاق (المزاجيّ!) من أكثر مظاهر الفساد التي وُسِمَ بها ولاةٌ سابقون، لذا كانت الصّرَامة هنا، مقرِّرًا أنّ سياسته في الإنفاق ستكون وفق الحقّ والباطل، وقد كان هذا من كبرى التّحوّلات في تاريخ الدّولة الإسلاميّة في عهده، وتفصيلُ ذلك في كتاب «السّياسة الاقتصاديّة والماليّة للخليفة الرّاشد عمر بن عبد العزيز» لبشير عابدين.

> خطبة عمر قد اشتملت على سبع بنيات نصّيّة متسلسلة منطقيّاً ومترابطة عضويّاً، وهي منسجمة مع مبادئ التّشريع الإسلاميّ

ويَختم خطابه بمناداة (النّاس)، ليلفت انتباههم ويهيّئ أذهانهم لاستقبال كلام يمثّل تحوّلاً استراتيجيّاً في سياسة الدّولة، رافعًا صوته هنا أكثر، ليعلن عن تصحيح مسار علاقة الحاكم بالمحكوم، فيقول: «يا أيُّها النّاس! مَن أطاعَ اللّهَ فقد وَجَبَتْ طاعتُه، ومَن عصا اللّه فلا طاعةَ له. أطيعوني ما أطعتُ اللّهَ عزّ وجلّ، فإذا عصيتُ اللّهَ فلا طاعة لي عليكم».

فالأصلُ المعتبر في اتّباع الحاكم هو التزامه بالشّرع فقط، وقد أظهر عمرُ (الحاكمُ) للنّاس المحكومين في هذه البنية أيضًا أنه (محكومٌ) هو الآخر، وذلك في قوله «أطيعوني ما أطعت اللّه...» تكريسًا للمبدأ الشّرعيّ الأساسيّ الذي يمثّل نقطة الارتكاز في الخطاب العمريّ؛ مبدأ الحاكميّة

المطلقة للّه تبارك وتعالى، وعمرُ نفسُه هو أوّلُ المُلتزِمين به.

و(اللّهُ) الذي بدأ به في بنية نصّه الأولى ها هو يختم به في بنية نصّه الأخيرة، وبذا تَظهرُ أهمّيّةُ خاتمة النّصّ في ربط الخطاب؛ الخطاب الذي بدأ بـ(اللّه) ها هو يعود إليه ليكونَ آخرَ ما يَعْلَق بالأذهان، وهو أصلُ الأصول كلِّها، منه المبتدأ وإليه المعاد، فكأنّه بذلك جعل خطابه كدائرة تنطلق من اللّه وإليه تعود.

وهكذا، فإنّ خطبة عمر قد اشتملت على سبع بنيات نصّيّة متسلسلة منطقيّاً ومترابطة عضويّاً، وهي منسجمة مع مبادئ التّشريع الإسلاميّ وما عُرِفَ عن عمر من سيرته العمليّة قبل تولّيه الخلافةَ وبعده. ويُمكن تشبيه بنيات نصّه بحبّات العِقد التي ينتظمها خيط واحد، كأنّها جسد واحد متماسك بالعلاقات الرّابطة بين هذه البنى بعضِها ببعض؛ سابقِها بلاحقها، ولاحقها بسابقها، وأولاها بأخراها، وأخراها بأولاها.

ولعلّ عمرَ بما قَدّمه أراد أيضًا أنْ يُبيّن للنّاس ويرسم لهم صورة الخليفة الذي يَحكمهم، بذكره الصّفاتِ التي ينبغي أن يكون عليها الخليفةُ المسلم الحاكم الدّاعي القائد ليكون لائقًا بهذا المنصب، ولِيَصدُر عنها في سياسته رعيّتَه، فهو: المُعَظِّم اللّهَ ورسولَه، التّقيّ، السّاعي نحو ثواب الآخرة، النّقيّ السّريرة، المتّعِظ بالموت، المتجرّدُ من هوى النّفس والعصبيّات الأرضيّة بالتزامه شرعَ اللّه على نفسه أوّلاً.

> مصادر السّلطة العمريّة التي عولجتْ في الخطبة ثلاثةٌ، هي: المعرفةُ الإسلاميّةُ (سلطان الحُجّة)، والقوّةُ (سلطان القهر)، والمالُ (الثّروة).

وقد أصاب حاكمُ الرّوم في ذلك الزّمان في وَسْمِه عمرَ بـ«الرّجل الصّالح» حين بَلَغَه نعيُه رحمه اللّه كما جاء في كتابِ ابنِ عبد الحكم (ت ٢١٤هـ) الموسوم بـ«سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه».

وبناءً على ما سبق: إنّ مصادرَ السّلطة العمريّة التي عولجتْ في الخطبة ثلاثةٌ، هي: المعرفةُ الإسلاميّةُ (سلطان الحُجّة)، والقوّةُ (سلطان القهر)، والمالُ (الثّروة). وبهذا تكون النّظريّة السّياسيّة العمريّة التي تضمّنتْها خطبته السّابقة، قد اكتملتْ أركانها المؤسِّسةُ لقيام المجتمع الإسلاميّ وإصلاحه وتطويره، فلا سُلطةَ حاكمة إلّا ولها نظريّةٌ نابعة من فلسفة فكريّة معيّنة لتستمدَّ شرعيّةَ وجودها واستمرارها.

يقول الماورديّ (ت ٤٥٠هـ) في كتابه «أدب الدّنيا والدّين»: «اعلمْ أنّ ما به تصلح الدّنيا حتّى تصيرَ أحوالُها منتظمة، وأمورُها ملتئمة، ستّةُ أشياءَ هي قواعدُها وإنْ تفرّعت، وهي: دينٌ متَّبَع، وسلطانٌ قاهر، وعدلٌ شامل، وأمنٌ عامّ، وخِصْبٌ دارّ، وأملٌ فسيح». وقدْ اشتملَ هذه السّتةَ الخطابُ العمريُّ السّابق، كما تقدّم بيانُه.

قضايا



مسؤوليّة الكلمة وآثارها

عبد الجليل الزّق *

للكلمة -مكتوبةً أو منطوقة- آثارٌ نفسيّة واجتماعيّة وتربويّة، فمفعولُها خطيرٌ! والعبدُ مسؤول عمّا قاله لسانه وخطّه بنانه، قال تعالى في سورة ق- الآية (١٨): {ما يَلفظُ مِن قول إلّا لديه رقيبٌ عتيد}، لذا يجب على المرء أن يتروّى كثيرًا قبلَ أن ينطق أو يكتب، كيلا يضرّ نفسَه أو غيرَه؛

ولهذا حرص الإسلام على تربية أتباعه على أسلوبٍ نظيف من القول، قال تعالى: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وقولوا قولاً سديدًا، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا**﴾ في سورة الأحزاب- الآيتين: (٧٠- ٧١). وقال الشّاعر:

وزِنِ الكلامَ إذا نطقْتَ فإنّما

يُبدي عيوبَ ذوي العقولِ المنطقُ

فالإنسانُ مخبوءٌ تحتَ لسانه، فإذا تكلّمَ عُرِفَتْ حقيقته، قال تعالى في سورة محمّد- من الآية (٣٠): «ولتعرفنّهم في لحن القول»، وقديمًا قالوا: «رُبَّ كلمةٍ قالتْ لصاحبِها: دعني» أيّ: لا تتلفّظْ بي، فإنّك إن فعلتَ أهلكتُك وكشفت حقيقتك.

والكلمة المنطوقة أو المكتوبة بعيدةُ الأثر في النّفس البشريّة، فقد تَهديها إلى الرّشد أو تنحرف بها عن الجادّة، وفي اتّجاهات السّلوك البشريّ قد تدفعُه إلى الاستقامة أو الاعوجاج؛ ولذا يُوجّهُنا القرآنُ الكريم إلى الاهتمام بانتقاء الكلمة ضاربًا الأمثالَ الموضِّحة ليعرفَ النّاسُ آثارها الطيّبة الحميدة حينما تتّصف بالخير والصّدق والمسؤوليّة، ويدركوا نتائجها المدمّرة إذا جانبها

* مدير التّربية والتّعليم- عمّان الثّانية، سابقًا.

التّوفيق وغلّفها الكذب وظلّلتّها الخديعة؛ قال تعالى في سورة إبراهيم- الآيات (٢٤- ٢٦): ﴿**ألمْ ترَ كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيّبة كشجرة طيّبة أصلُها ثابت وفرعها في السّماء، تؤتي أكلَها كلَّ حين بإذن ربّها ويضرب الله الأمثال للنّاس لعلهم يتذكّرون، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتُثّتْ من فوق الأرض ما لها من قرار**﴾.

ولمّا كانتِ الأشياء تتمايز بأضدادها، ذكر اللّه لنا مثل الكلمة الخبيثة مقابل الكلمة الطّيّبة، فلولا الظّلمةُ ما عُرِفَ فضل النّور، ولولا القبح ما ظهرتْ روعة الجمال، لأنّ تعوُّدَ الإنسان رؤيةَ الجمال وحده يجعله باهتًا في نظره ويُفقده قيمته مهما كان جليلاً.

ولئن كانتْ جذور الشّجرة الطّيّبة تتفرّع في جوف الأرض فإنّ الكلمة الطّيّبة تتفرّع في شغاف القلوب وتلامس سويداءها؛ تخلّف مكانَها أمنًا وسلامًا، بينما تصعد فروعُها إلى سماء النّفس فتجلوها، وإلى مرآة الوجدان فتصقلها، وتنشر على مَن حولها ظلال الإيمان النّديّة.

> الكلمة الطّيّبة لبنة أساسيّة في صرح السّعادة الإنسانيّة، تسعد قائلها وسامعها، تخرج من القلب السّليم المزكّى

الكلمة الطّيّبة لبنة أساسيّة في صرح السّعادة الإنسانيّة، تسعد قائلها وسامعها، تخرج من القلب السّليم المزكّى، وينطق بها اللّسان المنقّى،



لتستقرّ في القلب، كما أنّها تسعد النّاسَ بما تخلقه من جوٍّ يفيض بالألفة والمودّة وتنعشهم بأريجها الفوّاح.

إنّها ترجمة صادقة للشّعور الطّيّب والإحساس النّبيل، تحمل بين حروفها دفء الحياة ولذّة العطاء وسعادة التّواصل الرّفيع بين الإنسان وأخيه الإنسان؛ فهي روح وريحان، نتائجها مفيدة، وغايتها بنّاءة، ومنفعتها واضحة، فكم من كلمة طيّبة قرّبت بين المتباعدين، وأصلحت ما بين المتخاصمين، وجمعت شمل المتدابرين، فأورثت صاحبها عزّاً وحمدًا بين النّاس لا يمّحي على مرّ الأيّام!

الكلمة الطّيّبة مصدر للخير والعطاء والإصلاح، تقع في نفس الضّالّ فتهديه، والمحزون فتسلّيه، والخائف فتطمئنه، والفاسد فتصلحه.. فيها عطاء المدد الذي لا يعرف الحدّ ولا العدد، وتفتح أبواب الخير، وتغلق أبواب الشّرّ، وتحوّل العدوّ إلى صديق، وتمنع كيد الشّيطان، قال تعالى: ﴿**ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه وليّ حميم**﴾ (سورة فصّلت- من الآية ٣٤).

وبها تكون مودّة الأبناء بالآباء، قال تعالى في سورة الإسراء- من الآية (٢٣): ﴿**فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريمًا**﴾. وحتّى مع الأعداء، أمر اللّه بها فقال لموسى وهارون عليهما السّلام: ﴿**اذهبا إلى فرعون إنّه طغى، فقولا له قولاً ليّنًا لعلّه يتذكّر أو يخشى**﴾ (سورة طه: الآيتان: ٤٣- ٤٤).

وقد تضافرت السّنّة إلى جانب القرآن الكريم في توضيح مسؤوليّة المرء الكبيرة تجاه الكلمة التي يقولها مبيِّنةً آثارها على حاضره ومستقبله، إنْ خيرًا فخير، وإن شرّاً فشرّ. وتتعاظم هذه المسؤوليّة حينما يكون المرء في مكان التّوجيه والقدوة، فعن أبي عبد الرّحمن بلال بن الحارث المزنيّ رضي اللّه عنه، أنّ رسول اللّه –صلّى اللّه عليه وسلّم– قال: «إنّ الرّجل ليتكلّم بالكلمة من رضوان اللّه تعالى ما كان يظنّ أن تبلغ ما بلغت، يكتب اللّه عزّ وجلّ له بها رضوانه إلى يوم يلقاه. وإنّ الرّجل ليتكلّم بالكلمة من سخط اللّه تعالى ما كان يظنّ أن تبلغ ما بلغت، يكتب اللّه تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه» رواه الإمام مالك في «الموطّأ».

نعم، إنّ البخل بالمال شنيع، لكنّ البخل بالكلمة الطّيّبة أشنع وأخطر! وكيف يجود بالمال من يبخل بالكلمة الطّيّبة، وكيف ينال رضوان اللّه تعالى مَن يضنّ على أمّته بالنّصيحة! ونحن اليوم في أمسّ الحاجة إلى كرم الكلمة الطّيّبة التي تبني النّفوس والعقول، الكلمة التي تقال بلا خوف أو وجل من أحد. ما أحوجنا إلى السّخاء بالكلمة الطّيّبة نفتح بها مغاليق الخير ونغلق بها أبواب الشّرّ! ما أحوجنا إلى الأسخياء بقول المعروف الذي جعله اللّه أفضل من صدقة يتبعها أذًى: ﴿**قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذًى والله غنيّ حليم**﴾ (سورة البقرة- الآية ٢٦٣).

ما أحوجنا في هذه الأيّام إلى الكلمة الطّيّبة الهادفة في عالم طغت عليه لغة العنف والقسوة!

البخل بالمال شنيع، لكنّ البخل بالكلمة الطّيّبة أشنع وأخطر! وكيف يجود بالمال من يبخل بالكلمة الطّيّبة!



ففي الجِنان منازلُ لعشّاق الكلمة الطّيّبة؛ قال صلّى اللّه عليه وسلّم كما في «صحيح التّرغيب»: «إنّ في الجنّة غرفًا يُرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها. فقال أبو مالك الأشعريّ: لمن هي يا رسول اللّه؟ قال صلّى اللّه عليه وسلّم: لِمَن أطاب الكلام وأطعم الطّعام وبات قائمًا والنّاس نيام».

وقال عليه الصّلاة والسّلام فيما رواه عبد اللّه بن عمرو بن العاص: «ما أهدى المرء المسلم لأخيه هديّة أفضل من كلمةِ حكمةٍ يزيده اللّه بها هدًى أو يردّه بها عن ردًى» (رواه البيهقيّ في شعب الإيمان).

وتبقى الكلمة الطّيّبة عدّة الإصلاح وذخيرة الفلاح وطريق النّجاح ونورًا على الطّريق يهدي السّائرين في دروب الحياة. أمّا الكلمة الخبيثة فهي ألغام تتفجّر في طريق المجتمع المتكاتف، تفتّت وحدته وتقتلع جذور الأخوّة التي تثبّت المحبّة بين أبنائه، وتنشر مكانها بذور البغضاء والأحقاد، فيعمّ الفساد في المجتمع وتتداعى مقوّماته فيصبح هباءً منثورًا تذروه الرّياح.

فلْنتّق اللّه، فلا ننطق أو نكتب إلّا كلامًا طيّبًا ينفع العباد في معاشهم ومعادهم، ونصون به أنفسنا ومجتمعنا من الفساد والفتنة والفرقة التي فيها العذاب والهلاك.

وعلى أهل الكلام وحملة الأقلام ورجال الأعمال ممّن يَسنّون سننًا حسنةً وسننًا سيّئة أن يعلموا أنّهم شركاء في الأجر حين الإحسان، وشركاء في الوزر حين الإساءة، إلى يوم القيامة، وصدق اللّه القائل في سورة الإسراء- من الآية (٥٣): ﴿**وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن**﴾.

وأختم بحكايةِ الخليفة العبّاسيّ المهديّ مع الإمام الكسائيّ، فقد رُوِيَ أنّه كان عند المهديّ مؤدِّبٌ يُؤدّب الرّشيد، فدعاه المهديّ يومًا وهو يستاك فقال له: كيف الأمرُ مِن السِّواك؟ قال: (استك) يا أمير المؤمنين. فقال المهديّ: إنّا للّه وإنّا إليه راجعون! ثمّ قال: الْتمِسوا لنا مَن هو أفهمُ من هذا. فقالوا: رجلٌ يقال له عليّ بن حمزة الكسائيّ، مِن أهل الكوفة، قَدِمَ من البادية قريبًا، فكتب بإحضاره من الكوفة، فساعةَ دخل عليه قال: يا عليّ بن حمزة! قال: لبّيك يا أمير المؤمنين. قال: كيف تأمر من السّواك؟ قال: (سُكْ) يا أمير المؤمنين. قال: أحسنت وأصبت. وأَمَرَ له بعشرة آلاف درهم.

فلِمَ استرجع المهديُّ رغم أنّ «استك» فعلُ أمرٍ وفق قواعد العربيّة؟! لأنّ هذه الكلمة -بالعرف الاجتماعيّ السّائد في ذلك العصر- تُحيل إلى ما يُستقبح ذكره، والمهديّ لا يريد لولده الصّغير أن تألف أذنُه ألفاظًا تخدش الحياء.

انظرْ إلى الوعي التّربويّ في انتقاء الكلمة المناسبة!

جامعاتنا والانهزام الحضاريّ!

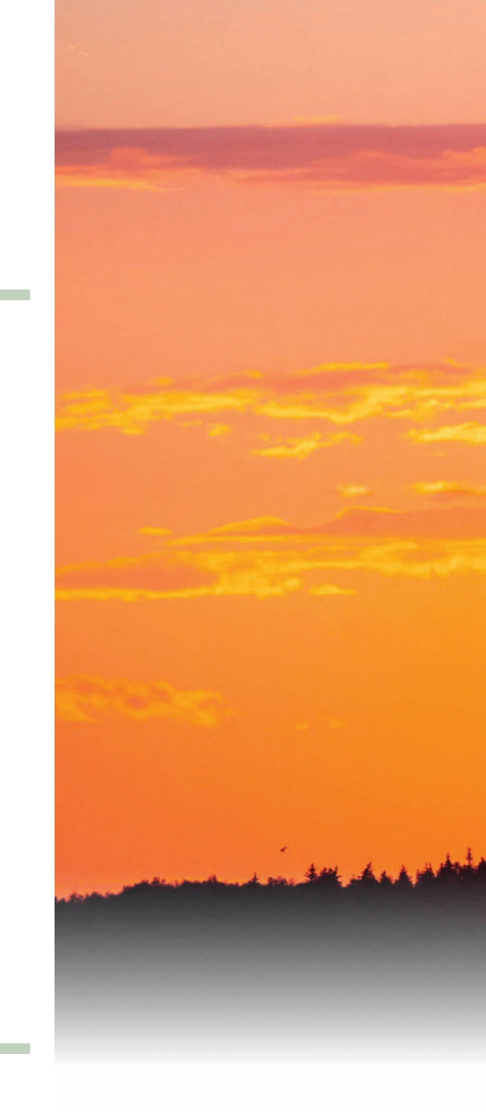
علاء الدّين القريوتيّ *

لن أتكلّم عن دور جامعاتنا الأردنيّة في تصنيع لَقاح لِحُمَة (كورونا)، ولن أتحدّث عن ترتيبها وفق التّصنيفات العالميّة للجامعات، ولن أُحمِّل جامعاتنا فوق ما تحتمل، ولكنّني سأتحدّث -من منطلق تخصّصي وتدريسي في غير جامعة- عن المكانة التي تحظى بها اللّغة العربيّة في جامعاتنا النّاطقة بالعربيّة، وهذه العبارةُ «النّاطقة بالعربيّة» هي أُولى الإشكاليّات التي سأتوقّف عندها.

إنّ جهود مَجْمَعِ اللّغة العربيّة الأردنيّ -في تعريب التّعليم- معروفة مشهورة مشكورة منذ عقود عدّة، ولكنّها ظلّت حبيسة الكتب والبحوث والمجلّات، وما زالت جامعاتنا تدرّس التّخصّصات التّطبيقيّة بغير العربيّة! وما زال طلبتنا يعانون ويتكلّفون مشقّة التّرجمة إضافةً إلى مشقّة الدّراسة، وهل تُدَرِّسُ الجامعات المتحضّرة غربًا وشرقًا إلّا بلسان أبنائها؟!

وثمّة ظاهرة عامّة لا بدّ من الوقوف عليها، هي أنّك ترى بجانبِ اسم كلِّ مَعْلَم في الجامعة ترجمتَه إلى اللّغة الإنجليزيّة، وهو أمرٌ لا يحتاجه الطّالبُ العربيّ! وأمّا الطّالبُ النّاطق بغير العربيّة فهو أحوج ما يكون إلى قراءةِ اللّغة العربيّة والتّأمّلِ في جمال حروفها الأخّاذ! فإذا كان ذلك كذلك، فلا

* أستاذ الأدب القديم- جامعة الزّيتونة الأردنيّة.



> ثمّة ظاهرة عامّة لا بدّ من الوقوف عليها، هي أنّك ترى بجانبِ اسمِ كلِّ مَعْلَمٍ في الجامعة ترجمتَه إلى اللّغة الإنجليزيّة، وهو أمرٌ لا يحتاجه الطّالبُ العربيّ!

معنى لهذه التّرجمة إلّا كونها تنبئ بالتّبعيّة للآخر.

أمّا زملائي الأساتذة في التّخصّصات كافّة، الإنسانيّة والتّطبيقيّة، سواء مَن دَرَس في جامعةٍ ناطقةٍ بالعربيّة أم بغيرها، فمن المألوف عند كثيرٍ منهم أن يتحدّث بالمصطلحات الإنجليزيّة أو الفرنسيّة ولا ينسى أن يتعطّف علينا فيترجم المصطلح إلى العربيّة! ولست أدري مَن طلب منه بداية أن يحدّثنا بغير لغتنا! والأمرُّ من ذلك الشائعُ المألوفُ عند عجزه عن التّرجمة إلى العربيّة فيقول مبتسمًا مفتخرًا: (لا أعرف المعنى بالعربي)!، رغم أنّ هذا (الأستاذ) عربيّ قُحّ، وأهله كلّهم عرب أقحاح!!

ولكوني مدقّقًا لغويًّا للعديد من الأبحاث المكتوبة باللّغة العربيّة في المجالات التّربويّة والتّاريخيّة والشّرعيّة والاقتصاديّة والإداريّة والقانونيّة، لا أخفي عليكم سرّ دهشتي وحسرتي بعد قراءةِ لغةِ البحث الرّكيكة الكاشفة عن ضعف الباحث في لغته الأمّ؛ الأمر الذي يضطرّني أحيانًا إلى تصحيحِ كلّ سطر في البحث، ولا مبالغة.

ولْتَتَتَبّع الأوراقَ والخطابات الرّسميّة الصّادرة عن الأقسام والعمادات، ونماذجَ ضمان الجَودة -إلّا جَودة اللّغة- لتقفَ عند الأخطاء المَهولة في النّحو والصّرف والإملاء، فلا يكاد نموذج واحد يخلو من تِلْكم العيوب والهنات. ولا يُقبل عذرُ أحدهم بأنّ الكَتُومَ (السكرتيرة) هي مَن طَبَعَتِ الخطاب، فتوقيعُه وختمه يعنيان قراءته وتصديقه ومشاركته إثمَ الجناية على لغته. ولو كانت هذه الأخطاء باللّغة الإنجليزيّة لقامت الدّنيا، ولا تقعد إلّا بعد تصحيحها العاجل!

ولتتصفّحْ مواقع الجامعات الإلكترونيّة، لتزداد حسرتك على الحال التي وصلتْ إليها اللّغة العربيّة! هذا إن فَتَحَ لك الموقعُ باللّغة العربيّة بدايةً، فكثير منها يَفتح لك الشّاشة باللّغة الإنجليزيّة، ثمّ تطلب أنت اختيار اللّغة العربيّة لاحقًا!

وما من ريبٍ في أنّ امتحان الكفاية في اللّغة العربيّة، الذي يعقده مجمع اللّغة العربيّة الأردنيّ، شرطَ قبول للتّدريس في الجامعات والكلّيّات، فرضٌ لازب، وعلاجٌ ناجع، لكلّ مَن مَرِضَ لسانه وجفّ قلمه، إلّا مَن رحم اللّه من الأساتذة القديرين الشغوفين بلغة الضّاد الغرّاء. أمّا الطّلبةُ فالكثيرُ منهم لا يفقهون من الإنجليزيّة إلّا: (First, second, final, quiz, break...) وهم لا يحسنون تركيب جملة مفيدة تامّة خالية من الرّكاكة والخطأ بالإنجليزيّة ولا بالعربيّة، وهذا نتاج ضعف

متراكم، وصورة من صور وهْم الانتقال من المدرسة إلى الجامعة، ولعلّ ترداد أساتذتهم لهذه الكلمات خاصّةً يحفّزهم ويحفّز أوهامهم.

إنّ نقل مادّة اللّغة العربيّة (٢) إلى موادّ الجامعة الإجباريّة، جزء من الحلّ المرجوّ المأمول.

أمّا إذا صَدَرَ شيء من هذه الأخطاء -لا قدّر اللّه- من أقسام اللّغة العربيّة وأساتذتها وطلبتها، فهي القاصمة التي تتزلزل لأجلها العاصمة، ولا عاصم من أمر اللّه إلّا مَن رحم فَتَعَلَّمَ وسَلِمَ وغَنِمَ.

اللّغة العربيّة هُويّة، وانتماء، وحضارة. والتّقصير بحقّها انهزام حضاريّ ولا ريب.

ويبقى السؤال منّا، نحن المتخصّصين باللّغة العربيّة، ومِن الغيورين عليها مِن غير المتخصّصين: ألمْ يأنِ لجامعاتنا أن ترعوي، وتصير ناطقة بلسانٍ عربيّ مبين، كي تأخذ مكانها الصّحيح في ركب الحضارة المتين؟!

نحن أدرى وقد سألْنا بنجدٍ

أطويلٌ طريقنا أم يطولُ؟

وكثيرٌ من السّؤال اشتياقٌ

وكثيرٌ من ردّهِ تعليلُ!





تأمّلات حول الأدب في المجتمع

محمّد شاهين *

أضحى الأدب حديثًا نصًّا ثقافيًّا يتخطّى في أبعاده المحدّدات الأدبيّة التّقليديّة التي كان يَعترف بها بل يُعرف بها وينتهي الأمر. ولكنْ قبل الحديث عن هذا التّحوّل لا بدّ من عجالةٍ سريعة نتوقّف فيها عند بعض المحطّات التي مرّت بها التّقاطعات بين الأدب والثّقافة قبل أن ترسو الثّقافة في محطّة الأدب وتصبح مكوّنًا رئيسًا في تشكيله.

في منتصف القرن التّاسع عشر قام ماثيو آرنولد (شاعر وناقد ومفكّر في العصر الفكتوريّ) بكتابة دراسةٍ جادّة حول الموضوع بعنوان «الثّقافة والفوضى» (Culture and Anarchy) يؤكّد فيها تفوّق الأدب والشّعر خاصّةً على بقيّة فنون الكتابة مستمداً مقولته من تخصّصه في الأدب الكلاسيكيّ اليونانيّ واللّاتينيّ، بل عرّف الشّعر تعريفًا أصبح شائعًا عند المهتمّين بالموضوع، وهو: أنّ الشّعر خير نتاج لخير العقول وأنّ وظيفته تنويريّة جماليّة. وهو لا ينكر أنّ تعريفه هذا مستمدّ من كلاسيكيّة الأدب اليونانيّ جملةً وتفصيلاً.

يتضمّن موقف آرنولد هذا إسداءَ نوع خاصّ من البركة على الأدب يمكن أن نسمّيه بـ(الكهنوتيّة) التي يمكن فهمها ضمن الأزمة الرّوحيّة التي سادت العصر الفكتوريّ عندما كانت الكهنوتيّة الدّينيّة التّقليديّة تلاقي حتفها على يد التّقدّم

* أستاذ شرف- الأدب الإنجليزيّ، الجامعة الأردنيّة.

العلميّ للعصر. أي أنّه وجد في الأدب ضالّة تعويضيّة إذ أصبح الشّاعر كاهنًا جديدًا في جعبته أسرار الكون التي كان ينقلها إلينا ذلك الكاهن الذي فقد مكانته تحت وطأة العلم التي كانت مهيمنة على العصر.

لكنّ ما نسمّيه كهنوتيّة آرنولد الأدبيّة لم يكن تلك الكهنوتيّة المعروفة التي عاشت قرونًا من الزّمن؛ إذ إنّها تمتلك أيضًا بعدًا علمانيًّا أراد له أن يؤسّس هويّةً للأدب تميّزه عن سائر صنوف المعرفة الأخرى مثل التّاريخ والفلسفة والاجتماع وما إلى ذلك من سائر المعارف. وهذا التّميّز الذي أراده له هو بداية فكرة البرج العاجيّ للأدب الذي هو أصلاً فكرة الكهنوتيّة.

هذا البعد العلمانيّ أو الدّنيويّ الذي تسلّل إلى آرنولد من انغماسه في الأدب الكلاسيكيّ هو الذي جعل مقولته تمتدّ في تأثيرها إلى أدب القرن العشرين. ونذكر هنا شخصيّتين رئيسيّتين تبنّتا موقفه هما (ف. ر. ليفس) و(ت. س. إليوت):

نادى الأوّل بثقافة الصّفوة التي تتجلّى في كتابه المشهور «الموروث العظيم»/(Great Tradition) الذي اختار له نفرًا من أولئك الكتّاب الذين اعتقد أنّهم من صانعي الثّقافة المحدثين استمرارًا لذلك السّلف الكلاسيكيّ المتميّز الذي صنع ثقافة متميّزة في الماضي. والمعروف أنّ موقف (ليفس) يتمحور حول فكرة الثّقافة كقوّة لا يقدر على إنتاجها إلّا مَن أوتي ذلك الحظّ العظيم، أمّا النّاقد فيظلّ ثانويًّا بالنّسبة لهذا الحظّ إذ تنحصر وظيفته في استيعاب النّصّ ونقل هذا الاستيعاب أو الانطباع إلى الجمهور، أي أنّ المتلقّي لا يستقبل أدبًا بقدر ما يستقبل نقدًا تعبيريًّا ترك الأدب كنصّ مقدّس خلفه واستعاض عنه بما استطاع النّاقد أن يستخلصه أو يلخّصه أو يختزله من النّصّ الأصليّ الذي يتحتم على النّاقد ومن بعده القارئ أن يبقيه كأصلٍ تراثيّ لا يجوز اختزاله ولا إحالته إلى غير حالته التي هو فيها. وهكذا يظلّ النّصّ على مرّ الزّمن مرجعًا ثابتًا لا يقبل التّصرّف، يزوره أصحاب البصيرة النّقديّة لينقلوا بركاته إلى غيرهم.

أكّد (ليفس) إذن منهج آرنولد في مجمله لكنّه أضاف عليه اهتمامًا خاصًّا بتحليل النّصّ حتى لو جاء هذا التّحليل من خلال القراءة الانطباعيّة التّذوّقيّة للنّصّ، وبهذا يكون (ليفس) قد نبّه الخلف إلى ضرورة الاهتمام بالتّحليل النّقديّ حتّى لو وقع التّحليل من الناحية العمليّة خارج النّصّ الأصليّ.

فإذا كان آرنولد قد أضاف إلى الكهنوتيّة التّقليديّة كهنوتيّة علمانيّة، فقد أقرّ (ليفس) بإضافة كهنوتيّة تحليليّة نقديّة يستأثر بها النّاقد الكاهن دون غيره من سائر القرّاء أو المتلقّين. المهمُّ أنّ اهتمام (ليفس) بالتّحليل النّقديّ كان حجر الأساس للخلف بالنّسبة لانطلاقاتهم لاحقًا نحو تحليل نقديّ مختلف يتخطّى الانطباعيّة والشخصنة.

البعد العلمانيّ أو الدّنيويّ الذي تسلّل إلى آرنولد من انغماسه في الأدب الكلاسيكيّ هو الذي جعل مقولته تمتدّ في تأثيرها إلى أدب القرن العشرين

وقد أكّد (إليوت) ما جاء به (ليفس) بالنّسبة لمرجعيّة الصّفوة في الأدب وأهمّيّتها

كنموذج أوحد، لكنّه حدّد هذه المرجعيّة (على الأقلّ من النّاحية النّظريّة إذ إنّه تخطّاها عمليّاً) بالأدب الكلاسيكيّ فدعا الشّعراء المحدثين إلى أن يضعوا في الحسبان قراءة الأدب من (فيرجل) إلى يومهم الحاضر بغية أن تترسّب روح هذا الشّعر في وعيهم كمتطلّبٍ ضروريّ يسبق انطلاقهم في كتابة الشّعر.

ثمّ أَجْمَلَ هذا القول ثانيةً في مقالة اكتسبت شهرةً هي «الموهبة الفرديّة والموروث» بيّن فيها أنّ الشّعر عمليّة تقاطع بين الجانبين وأنّ العقل المبدع للشّاعر أشبه بصفيحةٍ (بلاتينيوم) يلتقي فوقها الهيدروجين مع الأكسجين لنحصل على الماء، بعدها ترجع الصفيحة إلى ما كانت عليه وكأنّ شيئًا لم يحصل.

يريد إليوت هنا أن يبيّن أنّ الموهبة الفرديّة لا تصنع بمفردها الشّعر كما اعتقد الرومانتيكيّون في بداية القرن التّاسع عشر، وأنّ الموروث وحده لا يصنع شعرًا كما اعتقد أدباء القرن الثّامن عشر. ويتّفق إليوت مع ليفس في أنّ أدب الصّفوة نتاج أصيل لا يدع مجالاً للنّاقد أن يختزله أو أن يعيد تركيبه من جديد. أكثرُ ما نستطيع أن نفعله بالموروث أن نجدّد النّظرة إليه كما جاء في عبارة (باوند) الشّهيرة «انظر إلى التّراث مجدّدًا» (make it new) لا مغيّرًا في أصله طبعًا. باختصار، استمرّت الرّوح الكهنوتيّة تطلّ علينا بين الحين والآخر بقناعٍ جديد يخفي وراءه حضور كاهن جديد بهيمنة جديدة.

لو أردنا أن نوجز قضيّة الأدب وتجلّياته في ظلال الثّقافة في الفترة الزّمنيّة التي تقع بين عقد العشرينيّات والسّتّينيّات من القرن الماضي لخلصنا إلى أنّ كهنوتيّة جديدة قد سيطرت على


ماثيو آرنولد

المشهد: ألا وهي كهنوتيّة الشّكل. وربّما تكون إشارة (جويس) في روايته «صورة الفنّان في شبابه» تعبيرًا مناسبًا عن الموقف عندما ذكر أنّ بطله (ستيفن) كان يطمح أن يكون «كاهن الخيال»، وهذا بالطّبع طموح جويس نفسه الذي كان آرنولد بشكلٍ أو بآخر يحاول جاهدًا الوصول إليه من خلال كهنوتيّة جديدة.

يتجلّى هذا الأمر من خلال سيادة الشّكلانيّين الرّوس في عقدي العشرينيّات والثّلاثينيّات وظهور النّقّاد الجدد الذين كانوا امتدادًا للشّكلانيّين بطريقة أو بأخرى في عقدي الأربعينيّات والخمسينيّات. ونذكر في هذا السّياق قول أحد أولئك النّقّاد الجدد، وهو شاعر أيضًا يدعى (ماكليش): إنّ القصيدة بوجودها لا بمعناها (The poem should be not mean).

وقد تكلّلت سيادة الشّكل بظهور البنيويّة في عقد السّتّينيّات إذ تبنّت فكرة اللّغة كنظام مستقلّ علينا أن نبحث في أمر تركيبه إن أردنا التّعرّف

عليه وعندها ينتهي الأمر. ويعني هذا أنّ اللّغة أصبحت «الصّانع الأمهر» (وهي عبارة أطلقها إليوت على معلّمه باوند) في أدبيّات المشهد برمّته.

لكنّ البنيويّة، و(التّركيز على الشّكل)، لم تستطع أن تصمد في وجه الدّراسات الثّقافيّة التي استطاعت أن تبيّن فقر الاعتماد على الشّكل بعيدًا عن المضمون الإنسانيّ والاجتماعيّ الذي تتحرّك ضمنه اللّغة. ولا يعني هذا أنّ النّاحية الثّقافيّة ألغت الشّكل وقامت على أنقاضه، بل أنّها رأته بحاجة إلى أن يُوسّع مداه ليخرج من حيّز التّجريد الذي تميّزت به البنيويّة إلى حيّز العالم الرّحب الذي تعيش فيه ليشمل شكل الحياة التي نعيشها بدلاً من الوقوف عند شكل اللّغة كمطافٍ أخير يحرمنا من الوقوف عند أسرار حياتنا العمليّة وأنماطها المختلفة.

أصبح الأدب بعد انهيار البنيويّة نصّاً كسائر النّصوص في المنظومة الثّقافيّة حتّى لو تميّز عن بقيّة النّصوص المعرفيّة الأخرى بلغته الأدبيّة واكتسب هويّة ذات أبعادٍ جمعيّة حلّت محلّ كهنوتيّة البرج العاجيّ وقدسيّة النّصّ الأدبيّ التي حاصرت النّصّ بما يعرف من تقاليد أدبيّة تخصّ الأدب دون غيره من النّصوص.

أصبح الأدب علاقة تتقاطع مع بقيّة النّصوص التي تكوّن حياة المجتمع وسلوك أفراده، كما صار نصّاً مفتوحًا على العالم لا حكرًا على الكهنة، ووصل هذا التّأكيد ذروته عندما نادى (بارت) بموت الكاتب بعد الفراغ من عمليّة الكتابة.

يُعَدُّ نداء بارت بداية لانهيار فكرة الكهنوتيّة في الأدب وسقوط البرج العاجيّ ووضع حدّ للسّلطة المطلقة التي كان يتمتّع بها المؤلّف.

أراد بارت أن يعلن بطريقةٍ مباشرة أو غير مباشرة عن موت الكاهن صاحب السّلطة وعن المتلقّي كوريثٍ شرعيّ، دون أن يحرمه من سلطة موروثة لأنّه -المتلقّي- غير محدّد زمانًا أو مكانًا أو نوعًا. فهو يشكّل النّصّ من جديد بل يكتبه ولكن دون أن يكتسب هذا التّشكيل سلطة مطلقة لأنّ تشكيلات أخرى لا حصر لها تتوالى مع تغيّر أوضاع المتلقّي التي لا تكفّ عن الحضور. لم يعد النّصّ أمرًا تحكمه معادلة الثّابت والمتغيّر، أو الثّابت والثّابت.

لكنّ نداء بارت لم يكن نهاية المطاف بل بداية مهّدت لمنظومة الثّقافة التي أبقت على تحرّر النّصّ ليس من المؤلّف فقط، بل من كلّ الأطراف التي لها علاقة بالنّصّ بما في ذلك المؤلّف؛ إذ إنّها أعادت النّظر من جديد في نوعيّة العلاقة: علاقة النّصّ بمؤلّفه، التي لم تعد ذاتيّة. كما أنّ علاقته بالعالم لم تعد مجرّد محاكاة تعكس علاقة واقع خارجيّ بل علاقة تبيّن التّفاعل بينه وبين جميع الأطراف التي اشتركت في إنتاجه.

أصبح النّصّ علاقة تفاعل وتقاطع ونشوء وارتقاء ارتقت به عن (الموّال القديم) للمرآة العاكسة، إذ أصبح يتمتّع بديناميكيّة وجوده في العالم الذي جاء منه أصلاً، واستمرار عودته إلى ذلك العالم بشكل جديد اكتسب فيه ما اكتسب من خلال تفاعله مع الأطراف التي تكوّن منها في البداية.

أضحى النّصّ متحرّرًا من قيود الكهنوتيّة وقوّةً تثري حياتنا لا سلطةً تقمع طموحنا.

اللّغة الإنجليزيّة: أصلها وتعلّمها ومكانتها الاجتماعيّة

محمود السّلمان *

عامر حميدات *

ذَهَبَ اللّغويُّ (جورج يول) إلى أنّ المصادر الأساسيّة التي يمكن عدُّها بذرة تَطوّر اللّغة الإنجليزيّة هي لغة القبائل الجيرمانيّة الثّلاثة: (الأنجلو، والسّاكسون، والجيوتس)، الذين أتوا إلى الجزر البريطانيّة من شمال أوروبّا في القرن الخامس، وقد عُرِفَتْ اختصارًا بـ(Anglo-Saxon)، ومن اسمِ القبيلة الأولى اشتُقَّ اسمُ اللّغة المعروفة اليوم بـ(Englisc= English)، واشتُقَّ أيضًا اسم موطنهم الجديد (Engla- land)، وهذه النّسخة المبكّرة للـ(Englisc) تُسمّى (Old English).

وفي اللّغة الإنجليزيّة الحديثة العديدُ من الكلمات الأساسيّة التي تعود جذورها إلى كلمات قديمة من تلك النّسخة المبكّرة، مثل:

(Mann= Man) (Wif= Woman)

(Cild= Child) (Hus= House

(Eatan= Eat) (Drinkan= Drink)

إنّ أصل اللّغة الإنجليزيّة يعود إلى العائلة الجيرمانيّة. والكلمات المذكورة تدلّ على وجود نفس الأصل للّغتينِ الإنجليزيّة والألمانيّة.

وهؤلاء كانوا يعبدون الأوثان، ولذا كان اسمهم: (Pagan Settlers)، أي المستوطنين الوثنيّين. ومن بعض أسماء الآلهة اشتُقّت بعض أسماء أيّام الأسبوع:

"These pagan settlers also gave us some weekdays names, commemorating their gods" (Yule, 2010)

على سبيل المثال (لأيّام الأسبوع هذه):

(Woden and thor: Woden= Wednesday, Thor= Thursday)

* أستاذ اللّغة الإنجليزيّة واللّغويّات- جامعة البترا.

* مُحاضِر غير متفرّغ- جامعة عجلون الوطنيّة.





ولكنّهم لم يبقوا بلا دين، فقد تحوّلوا للمسيحيّة ما بين القرنين السّادس والثّامن. ولذلك يعود أصل العديد من كلمات اللّغة الإنجليزيّة الحديثة للّاتينيّة، لأنها كانت لغة الدّين. مثل:

Angel, Bishop, Candle, Church, Martyr, Priest, School

وجدير بالذّكر أنّ كلمة (Church) تعود بالأصل إلى كلمة (kirk)، حيث تمّت عمليّة تغيّر صوتيّ تشبه عمليّة التّغيّر الصّوتيّ المسمّاة باللّغة العربيّة (الكشكشة): يتحوّل الصّوت المهموس (k) الموصوف بـ(Voiceless Velar Stop)، إلى صوتٍ يوصف بـ(Voiceless Palato– Alveolar).

وفي هذا إشارة إلى أنّ الظّواهر اللّغويّة ذات طابع عالميّ، فالكشكشة (أي تحويل الكاف إلى تش/ ش: كتابك= كتابتش) علّلها سيبويه بأنّها نتجت للتّفريق بين الضّميرين: المخاطب المؤنّث، والمخاطب المذكّر، عند الوقف، لأنّ غياب الحركة عنده يسبّب عدم القدرة على التّفريق بين ضمير المذكّر (كَ) والمؤنّث (كِ).

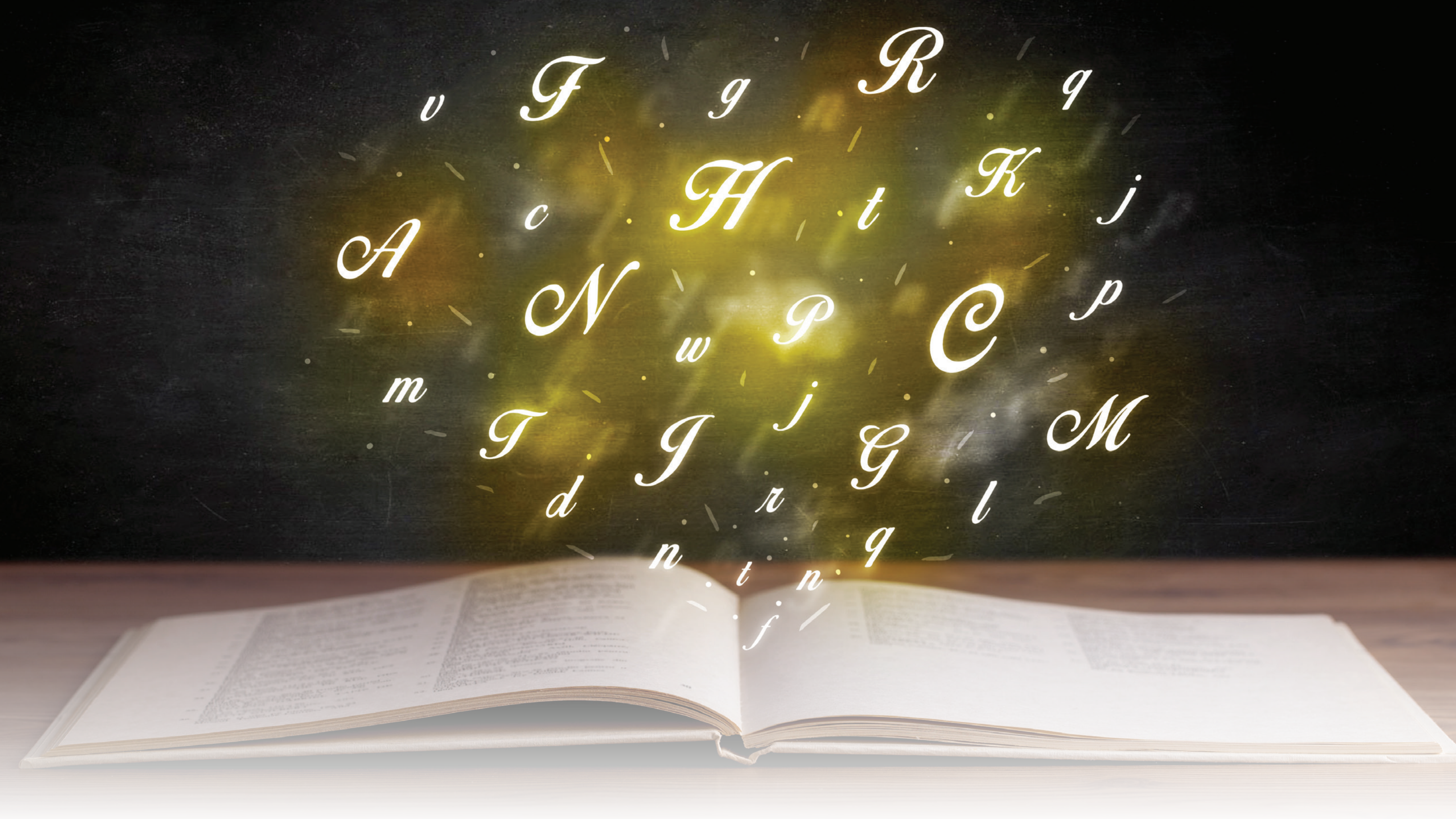
ومن الجدير ذكره أيضًا أنّ هذه الظّاهرة عُمِّمت، وهي تُطبّق على الكاف في مواقف لغويّة غير المذكورة، وهو ما يسمّى باللّغة (Lexical diffusion). لكنّها بقيت مشروطة بنوع المفردة، أي (lexically conditioned)، فالكشكشة مثلاً مسموح بها في كلمة (كَفٌّ) إذا عنت راحة اليد، لكنّها لا تُطبّق إذا كانت الفعلَ (كفَّ) عن فعل شيء ما.

وفي الواقع، هذه الظّاهرة اللّغويّة تشبه –لفظًا– عمليّةَ تحويل الـ(ك) إلى (ش) في بعض الكلمات الإنجليزيّة كالتي ذكرنا. وعلى سبيل المثال: كلمة (كنيسة) في الإنجليزيّة القديمة التي أشرنا إليها كانت: (كيرك) (كنيسة)، وقد تحوّلت لاحقًا إلى: (تشيرش)= (كنيسة)، وهذا يأخذنا إلى: فكرِ المتنوّر (بيتر تريدجل) الذي يَعتقد أنّ لا لغةَ أفضلُ من لغة ولا لهجةَ أفضل من لهجة، ما دامت هذه اللّهجة أو تلك توصل المعنى. وتجلّياتِ عالم اللّغة الأمريكيِّ (نعوم تشومسكي) بنظريّته التي تنادي بما سمّاه: (Universal Grammar)، أي عالميّة القواعد. فالكشكشة تحدث في العربيّة، وهي قابلة الحدوث في لغات أخرى.

أمّا عن تعلّم اللّغة الإنجليزيّة السّؤالِ الذي طالما سمعناه، فسنحاول أن نجيب عنه بأقصر الطّرق وأسهلها، علّنا نفيد القارئَ العزيز. ولكنّ، قبل ذلك لا بدّ من الوعي بعلاقته الوثيقة جدّاً بالجانبين النّفسيّ والحضاريّ:

فاللّغة الإنجليزيّة في هذه الأيّام تشكّل ما يسمّى (Lingua Franca) أي اللّغة التي تُستعمَلُ وسيلةً للتّفاهم بين شعوب مختلفة اللّغات. فمثلاً لو الْتقيْتَ بصينيّ وألمانيّ وإسبانيّ وفرنسيّ.. للجأ جميعكم في الغالب إلى الإنجليزيّة للتّفاهم، وهي تختلف عن الـ(International Language) أي اللّغة العالميّة، التي لا يلزم أن تكون لغة تفاهم

إذا أردتَ من أحدهم أن يتحدّث الإنجليزيّة فأرشدْه إلى أن يستمع، لا أن يتحدّث؛ استماعًا متواصلاً بطريقة منتظمة ممنهجة



الشّعوب، فالفرنسيّة مثلاً تُعَدُّ لغةً عالميّة، لكنّها في هذا الزّمان ليست لغة التّفاهم بين الشّعوب.

وعليه؛ من الواقعيّة تقبّلُ ذلك، ففي كلّ زمان ثمّة لغة تلعب دورًا رئيسًا تصل إليه، ففي الماضي كانت الآراميّة، وفي يوم كانت الرّومانيّة، وكانت العربيّة أيضًا التي وصلتْ إلى هذا المستوى خلال تاريخها اللّغويّ.

إذن، تستحقّ الإنجليزيّة أن نبذل جهدًا لتعلّمها لضرورتها الواقعيّة. ولكنّ الذي ليس فيه خيرٌ للغته، لن يكون فيه خير للغةٍ أخرى. وبما أنّ العربيّة هي هُويّتنا وتاريخنا وحضارتنا، فيجب أن يبقى تعلّم الإنجليزيّة في السّياق اللّغويّ فقط، وليس إتقانُها مدعاةً للتّفاخر. فلا تعلو على العربيّة عندنا أيّة لغة.

والآن نجيب عن السّؤال: إذا أردتَ من أحدهم أن يتحدّث الإنجليزيّة فأرشدْه إلى أن يستمع، لا أن يتحدّث؛ استماعًا متواصلاً بطريقة منتظمة ممنهجة. وقبل بيانها لا بدّ من الإيمان العلميّ بإمكانيّة تعلّم أيّة لغةٍ (لغةً ثانيةً) مهما بلغ العمر؛ ولا شيء يمنعك من ذلك، وليس صحيحًا ما يسمّى بـ(المرحلة الحرجة)/ (Critical Period) التي يسعك تعلّمُ اللّغات قبلها لا بعدها، وهي التي يُظَنُّ أنّها سنّ الـ(١٢)، فهذا كلام غير علميّ وغير دقيق، فهذه السّنّ تتعلّق باللّفظ فقط لا غير، لأنّه يتعلّق بما يسمّى (Places of Articulation) أي أماكن النّطق التي تتعلّق بالعضلات، فربّما تصعب السّيطرة عليها بعد سنّ الـ(١٢)، لا أكثر ولا أقلّ.

ويُضرب المثل بالمُنَظِّر السّياسيّ وزيرِ الخارجيّة الأمريكيّة الأسبق (هنري كيسنجر) والرّوائيّ الإنجليزيّ (جوزيف كونراد)؛ اللّذين تعلّما الإنجليزيّة وأتقناها إتقانًا تامّاً، مع أنّ اللّفظ يُظهر أصليهما، فالأوّلُ تعلّمها بعد قدومه من ألمانيا إلى أميركا وعمره يتجاوز الـ(١٢)، والثّاني بولنديُّ الأصل تعلّمها وعمره (٢٧) وكتب أولى رواياته «قلب الظّلام» وعمره (٣٤) عامًا.

وقد ذكر (تشومسكي) أنّ في الدّماغ جزءًا متخصّصًا باكتساب اللّغة، من الممكن تشبيهه مجازيّاً بالصّندوق الأسود، سمّاه

(Language Acquisition Device) (LAD)، أي أداة اكتساب اللّغة. هذا الجزء يحتاج إلى التّعرّض للّغة (أي الاستماع) فقط، حتّى ينشط ويعمل ويبدأ بغزل القواعد الخاصّة بكلّ عمر، إلى أن تستقرّ هذه القواعد بشكلها النّهائيّ في مرحلة النّضوج اللّغويّ. وهذه القواعد إذا ما تمّ بناؤها بالاستماع الطّبيعيّ، تسمّى (Natural Input)، وفي هذه الحال تكون عمليّةُ اكتسابٍ طبيعيّةٌ للّغة ينتج عنها لغة سليمة وصحيحة، وهي ما سمّاها (تشومسكي):

(The "All and Only" criterion: All the grammatical sentences and Only the grammatical sentences).

وهذا يعني أنّ تلك القواعد التي اكتسبها الشّخص بشكل طبيعيّ لا يمكن أن يستنبط منها إلّا كلّ الجمل التي تعدّ قواعديّاً صحيحة. ثمّ استخدم دراسته الرّياضيّات لتبسيط ذلك فقال: إنّ هذه القواعد التي يبنيها الدّماغ بشكل طبيعيّ (غير التعلّم المدرسيّ) تكون محدودة العدد ولكنّها قادرة على إنتاج عدد غير محدود ولانهائيّ من الجمل. وهذا العلم يطلق عليه النّحو التّوليديّ. أي: من عدد محدّد من القواعد نستطيع أن ننتج (نولّد) عددًا غير متناه من الجمل.

(The grammar will have finite number of rules, but will be capable of generating an infinite number of well- formed structure).

وهذا ما سمّاه: (Generative Grammar).

ولتطبيق ذلك عمليّاً علينا أن ننشّط الـ (LAD) بالاستماع. وقد طبّق (تشومسكي) قواعد الجبر والرّياضيّات عمومًا على ذلك عندما تعامل مع متغيّرات وثوابت. فمثلاً: لا تستمع لأيّ شيء يفوق مستواك اللّغويّ بدرجات كبيرة، لأنّ ذلك لن يفيدك، بل ربّما يؤدّي إلى إحباطك. وثمّة معادلة نسمّيها: (i+1)، ويعني الرّمز (i): (متغيّر)، فقد يكون (١) أو (٢) أو (٣) أو...

فإذا افترضنا أنّ مستواك اللّغويّ يكون فيه: (i=3)، يجب أن تستمع لمستوى (٤)، أي القريب لمستواك اللّغويّ (٣). في هذه الحال ستحصل على شيء نسمّيه (Intake)، أي فهم ما تسمع واستخدامه. ولكنّ، إذا كان المستوى أعلى منك بدرجة واحدة فقط، فهذا يعني أنّك تقدر أيضًا على اكتساب أشياء أعلى من مستواك قليلاً (وهي الموجودة في المستوى الرّابع)، وهو يعني أنّك تتطوّر خطوة خطوة. تمامًا كالطّفل الذي نراعي مستواه اللّغويّ البسيط عندما نتحدّث معه في بداية تعلّمه اللّغة.

وعندما يصبح مستواك (٤)، تتغيّر المعادلة فتصبح: (i=4)، وفي هذه الحال تبدأ الاستماع للمستوى (٥). وبهذه الطريقة تستطيع بناء القواعد الضّروريّة الطّبيعيّة التي تمكّنك من إنتاج الجمل الصّحيحة التي سمّاها (تشومسكي): (Well- Formed Sentences).

إذنّ، الاستماع ثمّ الاستماع ثمّ الاستماع. ولكنّ بطريقة علميّة ممنهجة وماتعة.

والآن نناقش وجود «فصحى إنجليزيّة» وهل تختلف عن الفصحى العربيّة؟ لقد لاحظنا كيف أنّ اللّغة الإنجليزيّة عبر تاريخها تأثّرت كثيرًا باللّغات الإسكندنافيّة عبر القرون الثّامن والتّاسع والعاشر (أي لمدّة ثلاثة قرون)، ثمّ كيف أثّرت فيها الفرنسيّة فجعلتها لا تعدو لهجةً للفلّاحين

البسطاء في عقر دارها وصارت الفرنسيّة لغة الطّبقة العليا والنّبلاء والقانون والحياة المدنيّة المتحضّرة، حتّى أنّ الشّعراء الإنجليز العظام مثل (تشوسر) الذي تُعدُّ قيمته كقيمة (شكسبير) في تاريخهم، (والشاعر من أكبر رموز اللّغة) -قد تحدّثوا عن عظمة الفرنسيّة وأهمّيّتها ورقيّ من يستخدمها كما نتبيّنه في بيت (تشوسر) الشّهير الذي تظهر فيه الفرنسيّة بشكلٍ واضح لا لبس فيه:

«And Frenche she spak ful faire and fetisly»

(Frenche= French)

(Spak= speak)

ثمّ استقرّت الإنجليزيّة الحديثة (Modern English) لتغيّر موازين القوّة، لكنّ المشكلة بقيت في أنّ هناك العديد من اللّهجات، مثل (الكوكني) أو (الجوردي) في الجزء الشّماليّ الشّرقيّ من البلاد، أو لهجة الجنوب التي تسمّى (Received Pronunciation)، لكنّ لا توجد من بينها لهجة يمكن عدّها (Standard English) أي ما يشبه الفصحى، لاستخدامها في الأمور الرّسميّة، أو كنموذج لما يجب أن تكون عليه الإنجليزيّة الرّسميّة.

ونتيجةً لظروف اقتصاديّة سياسيّة بحتة، بدأت لهجة المثلّث الواقع بين (كيمبردج) و(لندن) و(أكسفورد) تأخذ أهميّة خاصّة، لازدهار تلك المنطقة، ولا سيّما من خلال تجارة الصّوف وتجمُّع الرّموز السياسيّة التّاريخيّة فيها، وبدأت تلك اللّهجة الجنوبيّة تأخذ مكانها فيما يسمّى اليوم مجازًا الفصحى (Standard English)، ولكنّ بمفاهيم تختلف عن تلك التي نستخدمها في بلادنا.

ولذلك؛ فإنّ هذه اللّهجة التي بدأت تأخذ اسم اللّغة (المودل) تسمّى أيضًا (Received Pronunciation) وهي اللّغة المستخدمة في إذاعة الـ(بي بي سي). ولكنّ يجب توضيح التّالي لشدّة أهمّيّته:

لا يمكن تحوّلُ لهجة ما إلى مستوى الفصحى، وعدُّها فصحى البلاد إلّا إذا مرّت بثلاثة شروط لاختيارها كما يقول (مستري) ورفاقه، وهي ذاتها التي طُبِّقت على العربيّة في الماضي: (Selection) أي الاختيار، وقد لاحظنا أنّ هناك العديد من اللّهجات الإنجليزيّة، ومن بينها اختيرت هذه اللّهجة لتكون النّموذج الرّسميّ. و(Acceptance) وتعني القبول، وهي موافقة المجتمع الكلّيّ الذي يُسمّى مجتمع الكلام (Speech community) لتكون هذه اللّهجةُ اللّغةَ الرّسميّة. و(Codification) وتعني تشريع اللّهجة وجعلها لغة الاتّصال والإعلام والكتابة والمحاكم وغيرها في الدولة. وهذا ما كان، فمهما اختلفت اللّهجات الإنجليزيّة فلا تُكتَب إلّا باللّغة التي تسمى (Received pronunciation).

ولكن يجب الأخذ بعين الاعتبار أنّ ثمّة فروقًا شاسعة في المعاني الاجتماعيّة والوظيفيّة بين

لا يمكن تحوّلُ لهجة ما إلى مستوى الفصحى، وعدُّها فصحى البلاد إلّا إذا مرّت بثلاثة شروط لاختيارها كما يقول (مستري) ورفاقه

الفصحى العربيّة ونظيرتها الإنجليزيّة، ولعلّ أهمّها:

١- اللّغة الإنجليزيّة الرّسميّة لها متحدّثون أصليّون، فهي في الأصل لهجةُ منطقة جغرافيّة معيّنة في الجنوب البريطانيّ، مستخدمة عملياً من قبلهم ومن قبل غيرهم من الإنجليز. أمّا اللّغة العربيّة الفصحى فليست اللّهجة الأصليّة لأيّ موقع جغرافيّ على امتداد الوطن العربيّ، فليس لها متحدّثون أصليّون اكتسبوها كلهجة أصليّة أولى منذ الولادة.

٢- اللّغة العربيّة الفصحى تُصنّف على أنّها جزء من المجتمع اللّغويّ المسمّى (Diglossic) أي مجتمعات ازدواجيّة اللّغة كما أسماها عالم اللّغة (فيرغسون) عام (١٩٥٩م)، أمّا اللّغة الإنجليزيّة فتُصنّف على أنّها من مجتمعات (Non- diglossic)، وقد بيّن بوضوح المعنيَّ بهذا؛ فمجتمعات ازدواجيّة اللّغة فيها مستويان للّغة: الأوّل يسمّى (H) أي المستوى العالي (الفصحى)، والثّاني (L) أي الأدنى، ويكون لكلّ منهما مجال يناسب استخدامه ولا يناسب الآخر تحت كلّ الظّروف. وسمّى هذا المجال بـ(Domain)، فالمدرسة مجال لغويّ، وكذا الجامعة والمسجد، وهي مجالات للمستوى العالي. أمّا المستوى الآخر العامّ فيكون مجاله الشّارع والبيت وما شابه.

إنّ ظاهرة ازدواجيّة اللّغة موجودة في ثلاثة مجتمعات لغويّة في العالم، وهي: العربيّة، واليونانيّة القديمة، و(هاييتي بيدجن).

ففي العديد من المناطق البريطانية الـ (Received pronunciation) (RP) أي اللّغة (المودل)؛ هي اللّهجة الأصليّة للعديد من السّكّان، تُستخدم في كلّ المجالات اللّغويّة، مثل البيت والجامعة والمدرسة.

ولتوضيح هذا مبسّطًا: نرى العربيّ -إذا ما أجريت معه مقابلة تلفزيونيّة- يلجأ للفصحى، اعتقادًا منه باللّاشعور أنّ هذا هو مكانها، ولكنّه يكون مرتبكًا، فاحتمال الخطأ اللّغويّ وارد، إذ نراه يبدأ بها الحديث، وعندما يأخذ في التركيز على الفكرة يعود للهجته الأمّ باللّاشعور. وهذا لا يحدث مع الإنجليزيّ، والسّبب أنّ الإنجليزيّة المسمّاة بـ(RP) التي تعادل الفصحى عندنا يبدأ بها لأنّها لهجته، فلا يجلس متوجّسًا خائفًا يفكّر باللّغة، بل بالفكرة والقضيّة التي جاء من أجلها، فهي لهجته الأصليّة.

٣- اختلاف اللّهجات الإنجليزيّة، بما فيها اللّغة (المودل)، اختلافٌ في اللّفظ فقط، لا في النّواحي التّركيبيّة القواعديّة وغيرها. لذلك عندما يكتب (الجوردي) -وهو من سكّان مناطق (نيوكاسل) وأمثالها وكلّ الشّمال الشّرقيّ- لا يرتكب خطأً لغويّاً، لأنّ القواعد واحدة اكتسبها منذ مولده، ويختلف عن سكّان الجنوب باللّفظ فقط، وهذا لا يعني التّطابق التّامّ بينها؛ ولكنّ هذا الاختلاف ليس (Significant) ذا بال فلا

المدرسة مجال لغويّ، وكذا الجامعة والمسجد، وهي مجالات للمستوى العالي. أمّا المستوى الآخر العامّ فيكون مجاله الشّارع والبيت وما شابه

يؤثّر بشكل جذريّ فعّال. فمثلاً في مناطق الشّمال يقولون: «pail / دلو»، في حين تُستخدم في الجنوب الكلمةُ "Bucket"، وثمّة فرق في النّاحية النّحويّة، فمثلاً: نَفيُ النّفي ليس إثباتًا في بعض اللّهجات، فيبقى نفيًا، فيقولون: "I do not have no cigarettes"، بينما هذا غير مقبول في لهجات الجنوب، ولذلك يجب أن تكون: "I do not have cigarettes".

واللّغات عمومًا تتشابه في كثير من الأمور؛ فالعاميّةُ العربيّة -كما يقول السّعيد بدوي- مستوياتٌ: عاميّة العاميّين، وعاميّة المثقّفين، وعاميّة المتنوّرين. والعاميّةُ الإنجليزيّة كذلك -كما يقول (Joos)-: العاميّة الحميميّة (Intimate Style) ومجالها البيت، والعاميّة التّلقائيّة (causal style) ومجالها الأصدقاء، والعاميّة غير الرّسميّة بين الغرباء، التي تسمّى (Consultative). ولكن حتّى في العاميّة -كما يقول محمد إبراهيم- ثمّة مستوًى يُعَدُّ أعلى من غيره يسمّى: (Supra Dialectal Low).

ومن القضايا ذات الصّلة بهذا الموضوع فهمُ بعض علماء الغرب القاصرُ لسلوكِ المرأة العربيّة اللّغويّ، حيث إنّ كلامنا السّابق انتهى بتوضيح الطّبيعة اللّغويّة والاجتماعيّة للفصحى العربيّة والفصحى الإنجليزيّة. وقد ارتبطت الفصحى العربيّة بقضيّة الثّقافة والدّين، فأصبح استخدامها يعطي هذا المعنى الاجتماعيّ لمستخدمها: المثقّف مثلاً. بينما ارتبطت الفصحى الإنجليزيّة بالمدينة (لندن بالتّحديد)، لذلك أصبح استخدامها يعطي هذا المعنى الاجتماعيّ لمستخدمها: (مدنيّ)، (ناعم)، (راقٍ).. وما شابه.

ومن هنا كان من الطّبيعيّ أن تعرض معظم الدّراسات في الغرب مثل (لوبف، وتردجيل، وسانكوف، وفيشمان، وغيرهم) أنّ المرأة الغربيّة أكثر استخدامًا للفصحى الإنجليزيّة التي تسمّى (Received pronunciation)؛ لأنّ المرأة أكثر التصاقًا بالمعنى الاجتماعيّ المرتبط بالفصحى



الإنجليزيّة مثلاً، وهو الذي يظهرها أكثر نعومة ورقيّاً وتمدّنًا. بالمقابل، الرّجلُ الغربيّ يميل للعامّيّة أكثر، لأنّها ترتبط بطبيعته الميّالة للظّهور أكثرَ خشونة، ولا يهتمّ بالظّهور بنعومةِ اللّهجة. وجاء سوء الفهم لسلوك المرأة الشّرقيّة، وبخاصّة في بلاد الشّام، من هذه النّقطة بالتّحديد؛ نقطة عدم فهم المعنى الاجتماعيّ (Social meaning) للفصحى في اللّغة العربيّة، وخلطه بالمعنى الاجتماعيّ للفصحى الإنجليزيّة.

لذلك قاموا بتحليل نتائج الدّراسات التي تمّت في الشّرق وأظهرت أنّ المرأة العربيّة أقلّ ميلاً لاستخدام الفصحى في الحديث إذا ما قورنت بالرّجل الذي نسبة استخدامه الفصحى أعلى. ومن هنا بدأ العديد من علماء الغرب يحلّلون نتائج دراساتهم بدون اعتبار الفرق بين المجتمع الشّرقيّ ازدواجيّ اللّغة والمجتمع الغربيّ الذي لا يتميّز بها، لكنّ الذي حسم الأمر وأظهر أنّ المرأة العربيّة لا تختلف عن المرأة الغربيّة في سلوكها اللّغويّ هو العالم الكبير محمّد إبراهيم رحمه الله؛ فقد أوضح أنّ العامّيّة في المجتمع العربيّ متعدّدة، وأنّ هناك عامّيّة متميّزة سمّاها (Supra dialectal low)، وأنّ هذه الأخيرة هي اللّهجة المدنيّة التي تستخدم في مراكز التّمدّن المعروفة في الماضي، وهي: القاهرة، ودمشق، والقدس.

وعندما تستخدم المرأة العربيّة العامّيّة تميل بنسب عالية واضحة للعيان، عمومًا، إلى استخدام هذه اللّهجة المدنيّة لا غيرها. وهذه اللّهجة هي التي تحقّق الرّغبة الاجتماعيّة لأيّ امرأة؛ وهي ظهورها أكثر نعومة وتمدّنًا، وهي بهذا لا تختلف عن أيّ امرأة إنجليزيّة تحقّق هذه الرّغبة اللّغويّة الاجتماعيّة عن طريق استخدام لهجة (لندن) التي أصبحت بالمصادفة هي الفصحى؛ فتستخدمها المرأة لأنّها لهجة مدينة قبل أن تكون اللّهجة التي اختيرت لتكون الفصحى الإنجليزيّة، والمرأة العربيّة تحقّق نفس الرّغبة من خلال استخدام اللّهجة المرتبطة بمراكز التّمدّن المعروفة تقليديّاً في العالم العربيّ، وهي: القاهرة، ودمشق، والقدس.

وبهذا أرجع محمّد إبراهيم العديدَ من علماء الغرب لتحليل ما يوجد بالعالم العربيّ لغويّاً بطريقة تختلف عمّا في الغرب، آخذين بنصيحة العَلَم الأمريكيّ الكبير (ولفرام) الذي نصحهم بالقول:

“linguists in the West have to avoid using their western ears if they wish to hear the Arab world properly”.

«على علماء الغرب ألّا يستخدموا آذانهم الغربيّة عند الاستماع للعالم العربيّ لغويّاً».

ومن هنا تبيّن أنّ المرأة العربيّة لا تختلف لغويّاً عن نساء الكون. ولكنّ أداة تحقيق الهدف كانت هي المختلفة لا غير. علمًا بأنّ كلّ ما ذُكِرَ يقع ضمن سياق القضيّة النّفسيّة. بمعنى أنّ استخدام اللّهجة المدنيّة لا يلزم أنّك أكثر تمدّنًا أو تحضّرًا، هنا أو في الغرب. وإتقان الفصحى بمعانيها الثّقافيّة قد يكون ميزة عند العديد من النّساء أيضًا، لأنّ المعنى الاجتماعيّ المرتبط بالثّقافة هو الأهمّ عندهنّ أيضًا.

التّفسير العلميّ للقرآن الكريم وإشكاليّاته اللّغويّة



نادر رزق *

كان طبيعيًّا ونحن نعيش عصر العلم، أن يلقي توجّهُ (العلم التّجريبيّ) ظلالَه على تفسير القرآن الكريم، وأن يَلْقَى حماسةً بظهور ما يُعرف بالتّفسير العلميّ للقرآن الكريم (أو الإعجاز العلميّ)، ممّن يقولون أنّهم يسعون إلى خدمة كتاب الله بمنهج جديد يُفترض أن يجري وفق ضوابط صارمة، بخاصّة من النّاحية اللّغويّة، أسوةً بمناهج التّفسير المعروفة التي استقرّت على مدى القرون السّابقة. فإلى أيّ مدًى وُفِّقوا في ذلك؟

نماذج تراثيّة مضيئة

رغم حداثة «تبلور» هذا المنهج، لم تعدم كتبُ تفاسير السَّلف وغيرها التّعريج على ما يمكن عدّه من الإشارات العلميّة في القرآن الكريم، كإثبات كرويّة الأرض وعِظَم جرم الشّمس بالنّسبة إليها؛ كما يظهر جليّاً فيما أورده ابن حزم الأندلسيّ (ت ٤٥٦هـ) في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنّحل»: «إنّ البراهين قد صحّت بأنّ الأرض كرويّة، والعامّة تقول غير ذلك، وجوابنا وباللّه تعالى التّوفيق: إنّ أحدًا من أئمّة المسلمين المستحقّين لاسم الإمامة بالعلم رضي اللّه عنهم لم ينكروا تكوير الأرض، ولا يُحفظ لأحد منهم في دفعه كلمة، بل البراهين من القرآن والسّنّة قد جاءت بتكويرها، قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿ **يكوّر اللّيل على النّهار ويكوّر النّهار على اللّيل**﴾ (الزّمر: ٥)، وهذا أوضح بيان في تكوير بعضها على بعض، مأخوذٌ مِن كَوَّرَ العمامة وهو إدارتها، وهذا نصّ على تكوير الأرض...»».

ومن ذلك أيضًا نفيُ معظم سَلَف المفسّرين، بأدلّة لغويّة وعلميّة، أن يكون غروب الشّمس في عينٍ حمئة حقيقيّاً في الآية

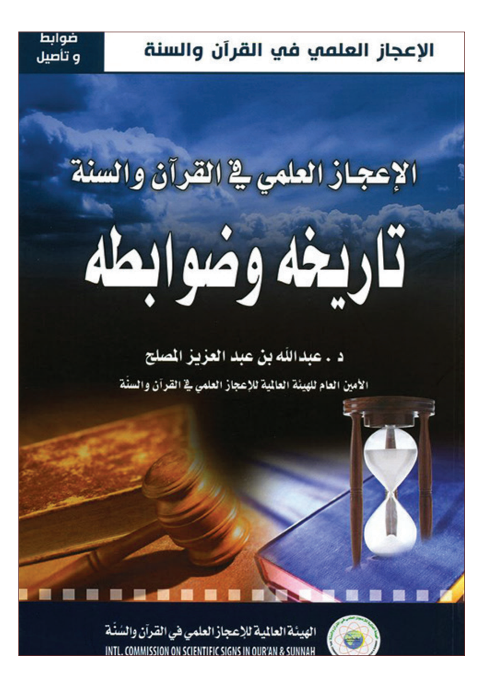
* مدير مديريّة التّخطيط والدّراسات- مجمع اللّغة العربيّة الأردنيّ.



(٨٦) من سورة الكهف: ﴿**حتّى إذا بلغ مغرب الشّمس وجدها تغرب في عين حمئة**﴾، ومنهم القرطبيّ (ت ٦٧١ هـ)، وابن الجوزيّ (ت ٥٩٧ هـ)، والرّازيّ (ت ٦٠٦ هـ)، والماورديّ (ت ٤٥٠ هـ)، وابن عبد السّلام (ت ٦٦٠ هـ)، والطّبرسيّ (ت ٥٤٨ هـ):

يقول الرّازيّ في تفسيره هذه الآية: «الشّمس أكبر من الأرض بمرّات كثيرة، فكيف يُعقل دخولها في عينٍ من عيون الأرض، إذا ثبت هذا فنقول: تأويل قوله: ﴿**تغرب في عين حمئة**﴾ من وجوه؛ الأوّل: أنّ ذا القرنين لمّا بلغ موضعها في المغرب ولم يبقَ بعده شيء من العمارات وجد الشّمس كأنّها تغرب في عين وَهدَة مظلمة وإن لم تكن كذلك في الحقيقة، كما أنّ راكب البحر يرى الشّمس كأنّها تغيب في البحر إذا لم ير الشّطّ، وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر. هذا هو التّأويل الذي ذكره أبو عليّ الجِبائيّ (ت ٣٠٣ هـ) في تفسيره».

ويؤيّده القرطبيّ في تفسيره: «وقال القفّال: قال بعض العلماء: ليس المراد أنّه انتهى إلى الشّمس مغربًا ومشرقًا حتّى وصل إلى جرمها ومسّها...وهي أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض»، وأضاف: «بل هي (يعني الشّمس) أكبر من الأرض أضعافًا مضاعفة، بل المراد أنّه انتهى إلى آخر العمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق، فوجدها في رأي العين تغرب في عين حمئة، كما أنّا نشاهدها في الأرض الملساء كأنّها تدخل في الأرض».



ويؤكّد الطّبريّ: «قد وَضُحَ أنّ جرم الشّمس أكبر من جرم الأرض بمئة وستّ وستّين مرّة تقريبًا، فكيف يُعقل دخولها في عين من عيون الأرض! فتأويل الآية أنّ الشّمس تشاهد هناك، أعني في طرف العمارة كأنّها تغيب وراء البحر الغربيّ في الماء، كما أنّ راكب البحر يرى الشّمس تغيب في الماء لأنّه لا يرى السّاحل، ولهذا قال: ﴿**وجدها تغرب**﴾ ولم يخبر أنّها تغرب في عين».

ويقول ابن الجوزيّ: «وربّما توهّم متوهِّم أنّ هذه الشّمس على عِظَم قدْرها تغوص بذاتها في عين ماء، وليس كذلك. فإنّها أكبر من الدّنيا مرارًا، فكيف تَسَعُها عين ماء! وقيل: إنّ الشّمس بقدر الدّنيا مئة وخمسين مَرَّة، وقيل: بقدر الدّنيا مئة وعشرين مَرَّة، والقمر بقدر الدّنيا ثمانين مرّة. وإنّما وجدها تغرب في العين كما يرى راكبُ البحر الذي لا يرى طَرَفه أنّ الشّمس تغيب في الماء، وذلك لأنّ ذا القرنين انتهى إلى آخر البنيان فوجد عينًا حمئة ليس بعدها أحد».

ويقول الخازن في تفسيره: «وقيل: يجوز أن يكون معنى ﴿**في عين حمئة**﴾ أي عندها عين حمئة، أو في رأي العين، وذلك أنّه بلغ موضعًا من المغرب لم يبق بعده شيء من العمران، فوجد الشّمس كأنّها تغرب في وَهدَة مظلمة، كما أنّ راكب البحر يرى أنّ الشّمس كأنّها تغيب في البحر».

ويقول ابن كثير: «وقوله ﴿**حتّى إذا بلغ مغرب الشّمس**﴾ أي فسلك طريقًا حتّى وصل إلى أقصى

ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض، وأمّا الوصول إلى مغرب الشّمس من السّماء فمتعذّر، وما يَذكره أصحابُ القصص والأخبار من أنّه سار في الأرض مدّة، والشّمس تغرب من ورائه، فشيء لا حقيقة له». وأضاف: «وقوله: ﴿وجدها تغرب في عين حمئة﴾ أي رأى الشّمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كلّ مَن انتهى إلى ساحله، يراها كأنّها تغرب فيه».

مِن هذه النّماذج المضيئة نستشفّ مدى حرص هؤلاء العلماء على التّواصل مع المنجز العلميّ في زمانهم وتوظيفه فيما يمكن عدّه تفسيرًا علميّاً بلغة عصرنا، لكنْ دون أن يلجأوا إلى لَيِّ المعاني. وعدم تحرِّي الدّقَّة اللّغويّة لا يشفع له حُسن النّيّة.

ضوابط لغويّة للتّفسير العلميّ

كان أوّلَ مَن أنجز تفسيرًا علميّاً كاملاً للقرآن الكريم (بمعنى ربطه بالعلوم البحتة أو التّطبيقيّة)، الشّيخُ الأزهريُّ طنطاوي جوهري (ت ١٩٤٠م) في كتابه «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» الذي ظهر بين عامي (١٩٣٢م) و(١٩٣٥م) في خمسة وعشرين مجلّدًا، ثم تبعه كثيرون..

يقول الشّيخ ابن عثيمين -كما جاء في مجموع فتاواه ورسائله- : «الإعجاز العلميّ في الحقيقة لا ننكره، لا ننكر أنّ في القرآن أشياءَ ظهر بيانها في الأزمنة المتأخّرة، لكنْ غالى بعض النّاس في الإعجاز العلميّ، حتّى رأينا مَن جعل القرآن كأنّه كتاب رياضة، وهذا خطأ. فنقول: إنّ المغالاة في إثبات الإعجاز العلميّ لا تنبغي؛ لأنّ هذه قد تكون مبنيّة على نظريّات، والنّظريّاتُ تختلف، فإذا جعلنا القرآن دالاًّ على هذه النّظريّة ثمّ تبيّن بعدُ أنّ هذه النّظريّة خطأ، معنى ذلك أنّ دلالة القرآن صارت خاطئة، وهذه مسألة خطيرة جدّاً».

أيّاً ما تكن المنهجيّة المتّبعة في تفسير كتاب اللّه، فمن البدهيّ أنّه يتعذّر في حال تجاوز بوّابة اللّغة في هذا المرتقى الصّعب. والتّفسير العلميّ للقرآن الكريم لا يعدُّ استثناءً من هذا الضّابط (اللّغويّ) عند التّصدّي لتأويل أيّ مفردة من مفردات كتاب اللّه في سياق تفسير أيّ آية تفسيرًا علميّاً، وهذا وغيره دفع إلى وضع الضّوابط، وما يعنينا في هذا المقام اللّغويّة منها:

يُـوْرِدُ الدكتور عبد اللّه المصلح، الأمـينُ العامّ للهيئة العالميّة للإعجاز العلميّ في القرآن والسّنّة، مجموعةَ ضوابط في كتابه «الإعجاز العلميّ في القرآن والسّنّة: تاريخه وضوابطه» تحت عنوان (ضوابط استخراج وجه الإعجاز بين النّصّ والحقيقة). وما يتعلّق باللّغة منها ما يأتي:

«محاولة فهم النّصّ الواقع تحت الدّراسة على وفق فهوم العرب إبّان نزول الوحي، وذلك لتغيّر دلالات الألفاظ حسب مرور الوقت، ولهذا يقتضي الأمر الإلمام بمسائل تعين على فهم النّصّ والتّمكّن من تقديم معنًى على آخر، وهي:

أ- إنّ النّصّ مقدّم على الظّاهر، والظّاهر مقدّم على المؤوّل.

ب- إنّ المنطوق مقدّم على المفهوم، وإنّ المفاهيم بعضها مقدّم على الآخر كذلك.

ج- أنْ يخضع في تناوله للنّصّ لقاعدة: العامّ والخاصّ، والمطلق والمقيّد، والمجمل والمبيّن، وأنّ العموم مقدّم على الخصوص، والإطلاق مقدّم على التّقييد، والإفراد على الاشتراك، والتّأصيل على الزّيادة، والتّرتيب على التّقديم والتّأخير، والتّأسيس على التّأكيد، والبقاء

على النّسخ، والحقيقة الشّرعيّة على العرفيّة، والعرفيّة على اللّغويّة.

د- مراعاة السّياق والسّباق وعدم اجتزاء النّصّ عمّا قبله وما بعده.

هـ- مراعاة قاعدة العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب.

و- معرفة معاني الحروف، وعدم تفسير حرف أو حمله على معنًى لا يقتضيه الوضع العربيّ.

ز- مراعاة أوجه الإعراب، وعدم القول بتوجيه لا يسانده إعراب صحيح أو قرينة أخرى.

ح- إنّ المشترك اللّفظيّ يمكن حمله على واحد من معانيه دون نفي الآخر أو القطع بأنّ هذا الصّواب وحده ما لم تكن هناك قرينة راجحة.

إضافةً إلى أنّ هناك أمورًا من قبيل المتشابه لا مجال لفهمها أو تناولها بالبحث».

فإلى أيّ مدًى اِلْتُزِمَ بهذه الضّوابط؟ الحديثُ في هذا المقام يطول؛ لذا سأكتفي بذكر بضعة نماذج لبيان الآليّة اللّغويّة التي يشتغل كثيرون من خلالها:

نماذج على ارتباكات التّفسير العلميّ

النّموذج الأوّل للطّبيب والدّاعية المصريّ المعروف مصطفى محمود في كتابه الشهير «حوار مع صديقي الملحد»: «وكان مثقال الذّرَّة يُعرف في تلك الأيّام بأنّه أصغر مثقال، وكانت الذّرّة تُوصف بأنّها جوهر فرد لا ينقسم، فجاء القرآن ليقول بمثاقيل أصغر تنقسم إليها الذّرّة.. وكان أوّلَ كتاب يذكر شيئًا أصغر من الذّرّة». ثمّ يستشهد على هذا «الفهم» بالآية الكريمة: ﴿**لا يَعْزُبُ عنه مثقالُ ذرّة في السّماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أَكبر**﴾ (سبأ: ٣).

هنا نرى مخالفة صريحة للضّابط اللّغويّ الأهمّ، بفهم مفردات القرآن على وفق فهوم العرب إبّان نزول الوحي، لا اتّباع تطوّر دلالات الألفاظ مع الزّمن، وهو ما أصاب كلمة (الذّرّة) بطبيعة الحال التي تطوّرت دلاليّاً من واحدةِ أصغرِ النّمل والكناية عمّا ليس له وزن، إلى المعنى الاصطلاحيّ في لغة العلوم اليوم وهو -كما هو واضح في الآية الكريمة- ليس مقصودًا حتّى يُبنى عليه إعجازٌ علميّ!

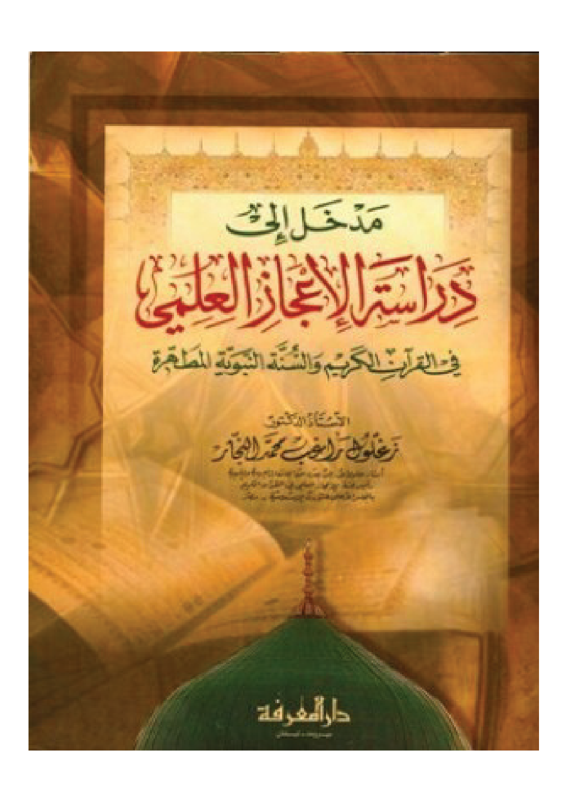
ويقول في موضع آخر من كتابه المشار إليه تعليقًا على الآية الكريمة: ﴿**والأرض بعد ذلك دحاها**﴾ (النّازعات: ٣٠): «و(دحا) هي الكلمة الوحيدة في القاموس التي تعني البسط والتّكوير معًا ... والأرض كما هو معلوم مبسوطة في الظّاهر ومكوّرة في الحقيقة، بل هي أشبه بالدّحية «البيضة» في تكويرها».

لكنّ الواقع أنّ الفعل (دَحَا) لا يحمل المعنى «المزدوج» الذي أورده، فضلاً عن أن تكون «الدّحية» بمعنى «البيضة» كما أكّد! يقول اللّسان في مادة (د ح و): «الدَّحْوُ: البَسْطُ. دَحَا الأَرضَ يَدْحُوها دَحْوًا: بَسَطَها. وقال الفرّاء في قوله عزّ وجلّ: ﴿**والأَرض بعد ذلك دَحاها**﴾، قال: بَسَطَها». ثمّ يقول: «والأُدْحِيُّ والإِدْحِيُّ والأُدْحِيَّة والإِدْحِيَّة والأُدْحُوّة: مَبِيض النّعام في الرّمل، وزنه أُفْعُول من ذلك، لأنّ النّعامة تَدْحُوه برِجْلها ثم تَبِيض فيه وليس للنّعام عُشّ».

أمّا كلمة «الدحية» التي أشار إليها مصطفى محمود (بدون ضبطها بالشَّكْل) فلا نقع عليها سوى بكسر الدّال وقد تُفتح، ولكن بمعنى لا يمتُّ بصلة إلى ما ذكره؛ يقول اللّسان: «والدِّحْية

رئيسُ الجنْد ومقدَّمهم، وكأنّه مِن دَحاه يَدْحُوه إذا بَسَطه ومَهَّده لأنّ الرّئيس له البَسْط والتَّمْهيد»، وفي القاموس المحيط: «ويُفْتَحُ، وبالفتح: القِرْدَةُ الأُنْثى».

وتابعَ مصطفى محمود كثيرون فيما قاله في الآية الكريمة ﴿**كمثل العنكبوت اتّخذتْ بيتًا**﴾ (العنكبوت:٤١) في كتابه «القرآن: محاولة لفهم عصريّ للقرآن» بأنّ العلم



أثبت أنّ نسج خيوط البيوت عند العناكب مقصور على الأنثى دون الذّكر، لذا استخدم القرآن صيغة المؤنّث في الآية، إذ يقول: «فهنا نرى القرآن يختار صفة التّأنيث حينما يتحدّث عن العنكبوت فيقول: ﴿**كمثل العنكبوت اتّخذتْ بيتًا**﴾، وقد كشف العلم مؤخّرًا أنّ أنثى العنكبوت هي التي تنسج البيت لا الذّكر، وهي حقيقة بيولوجيّة لم تكن معلومة أيّام نزول القرآن».

لو افترضنا صحّة ذلك، فلا إعجازَ علميّاً فيه؛ لأنّ العرب، كما ذكرت عائشة عبد الرّحمن في كتابها «القرآن والتّفسير العصريّ»: «تؤنّث العنكبوت وهو تأنيث لغويّ لا علاقة له بالتّأنيث البيولوجيّ، كما تؤنّث العقرب وغيرها من الحشرات»!

وأختتم بمثال شهير يتعلّق بالآيتين الكريمتين من سورة الرّوم: ﴿**غلبت الرّوم (٢) في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون (٣)**﴾؛ يذكر العديد -استشهادًا بالمعجم العربيّ- أنّ «الأدنى هو السَّفِل» أي الأخفض، لإثبات إعجازٍ علميّ أشار فيه القرآن الكريم إلى أنّ هذه الواقعة دارت في أخفض بقعة على سطح الأرض، ألا وهي غور الأردنّ، وهذه المعلومة لم تُعرف إلّا حديثًا.

ولو بُحِثَ في أيّ معجم عربيّ عن معنى كلمة (السَّفِل) لوُجِدَ أنّها تعني الخسيس أو الدّنيء، لا الأخفض، يقول ابن منظور في اللّسان: «السَّفِلَة السُّقَاط من النّاس، يُقال: هو من السَّفِلة، ولا يقال هو سَفِلة لأنّها جمع، والعامّة تقول: رجل سَفِلة من قوم سَفِلٍ، قال ابن الأَثير: وليس بعربيّ».

وكلمةُ (الأدنى) تعبِّر أصلاً قبل تطوّرها دلاليّاً عن الأقرب في مقابل الأبعد (أو الأقصى)، كما ذهب المفسّرون، والأقلّ في مقابل الأكثر، ولم يرد أنّها -بلغة العرب إبّان نزول الوحي- كانت تشير إلى الانخفاض الحقيقيّ.

وقد حاول الدكتور عليّ الصلابيّ في مقاله «أدنى الأرض.. إعجاز علميّ في كلام اللّه وصرخة مدوية في وجه الملحدين» المنشور على الشّابكة بتاريخ (٢٠١٨/١٢/٣٠م) أن يخرج من هذه المعضلة بتوظيف معنى «القُرب» المشار إليه أعلاه للوصول إلى الإعجاز العلميّ الذي يصرّ عليه، فجعل هذا القُربَ رأسيّاً إلى أسفل، يقول: «وهنا كلمة (الدّنيا) جاءت بمعنى الأقرب من الأرض، ولكن تتضمّن معنًى آخر وهو الطّبقة السّفلى بين طبقات السّماء السّبعة، وسُمِّيت بالدّنيا لدنوّها من الأرض». وهذا كلامٌ غريب

متكلّف، والتفاف على المعنى الأصليّ لم يقم على شاهد في لغة العرب.

ولعلّ خير ما نريد قوله هنا، يكفينا مؤونته الدكتور وهبة الزّحيليّ في كتابه «أصول الفقه الإسلاميّ»، إذ يقول: «إذا تعارض النّصّ مع عرف حادث بعده، فلا يصلح العرف مخصّصًا للنّصّ الشّرعيّ باتفاق الأصوليّين، ولو كان عرفًا عامّاً، لفظيّاً أو عمليّاً». ويتابع موضّحًا: «وعليه، تُفسَّر نصوص القرآن والسّنّة بحسب العرف القائم حين ورودها، ولا يُلتَفت إلى تبدّل الأعراف، مثل الألفاظ الاصطلاحيّة المتأخّرة...وإنّما تفسّر بحسب عرفهم في زمانهم، كلفظ (أستاذ) كان يراد به (ربّ الصّناعة) ثمّ أُطلق على مدرّس العلوم، فلا يفسّر النّصّ الفقهيّ القديم بالمعنى المعاصر الحادث بعدئذ».

المحكم والمتشابه

هل يراعى أن تكون الآيات التي يُتَعَرَّض لها ممّا لا خلاف على معاني مفرداتها؟ يقول ابن كثير في تفسيره: «يخبر تعالى أنّ في القرآن آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب، أي: بيّنات واضحات الدّلالة، لا التباس فيها على أحد من النّاس، ومنه آياتٌ أُخرُ فيها اشتباه في الدّلالة على كثير من النّاس أو بعضهم، فمن ردّ ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحكّم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى. ومن عكس انعكس؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب**﴾؛ أي: أصله الذي يُرجع إليه عند الاشتباه. ﴿**وأخر متشابهات**﴾ أي: تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل شيئًا آخر من حيث اللّفظ والتّركيب».

لنأخذ مثلاً بدايات سورة الطّارق ﴿**والسّماء والطّارق (١) وما أدراك ما الطّارق (٢) النّجم الثّاقب (٣)**﴾. يقول ابن كثير في تفسيره: «يقسم تعالى بالسّماء وما جعل فيها من الكواكب النّيّرة، ولهذا قال: (والسّماء والطّارق) ثم قال: (وما أدراك ما الطّارق)، ثم فسّره بقوله: (النّجم الثّاقب)، قال قتادة وغيره: إنّما سمّي النّجم طارقًا لأنّه إنّما يرى باللّيل ويختفي بالنّهار...، وقوله: (الثّاقب) قال ابن عبّاس: المضيء، وقال السّدّيّ: يثقب الشّياطين إذا أُرسل عليها، وقال عكرمة: هو مضيء ومحرق للشّيطان».

واضحٌ من كلام ابن كثير ونقولاته أنّ كلمة «الطّارق» ليست محسومة الدّلالة، وإن كانت أقرب إلى ما يُسمّى اليوم بـ«الشّهاب» الذي يحترق ويضيء عند دخوله الغلاف الجوّيّ، وقد يعني النّجم المعروف. فلماذا يحار الحيارى بين أن يكون المقصود النّجومَ النيوترونيّة المعروفة باسم النّجوم النّابضة تارة، والثّقب الأسود أخرى، من دون أن يقيموا «دليلاً لغويّاً حاسمًا» على أيّ من ذلك! وهذا يعيدنا إلى مسألة الضّبط اللّغويّ؛ فكثير من الكلمات يتعاملون معها بكثير من التّساهل في استخراج الدّلالة بلا دليل أو شاهد لغويّ يحسم المسألة ولا يجعلها عرضة للظّنّ الذي يتنافى مع استنباط الإعجاز.

يروي ابن حجر العسقلانيّ في كتابه «الكافي الشّاف في تخريج أحاديث الكشّاف» عن أبي بكر الصّدّيق رضي اللّه عنه عندما سُئل عن معنى «الأبِّ» في قوله تعالى: ﴿**وفاكهة وأبًّا**﴾، أنّه قال: «أيُّ سماءٍ تظلّني وأيّ أرض تقلّني إذا قلتُ في كتاب اللّه ما لا عِلم لي به»!، فإذا كانت هذه مقالته رضي اللّه عنه في كلمة «أَبّ»، فما نقول في غيرها الأكثر إشكالاً؟!

زاوية

التّرجمة

أبياتٌ من قصيدةٍ لجميل بثينة مترجمةً إلى الإنجليزيّة

عيد الدحيات

مَثَلان مَحْكيّان من اللّغة الإنجليزيّة

ديمة عابد

من مشكلات التّرجمة

محمّد عصفور





أبياتُ من قصيدةٍ لجميل بثينة مترجمةً إلى الإنجليزيّة

عيد الدحيات *

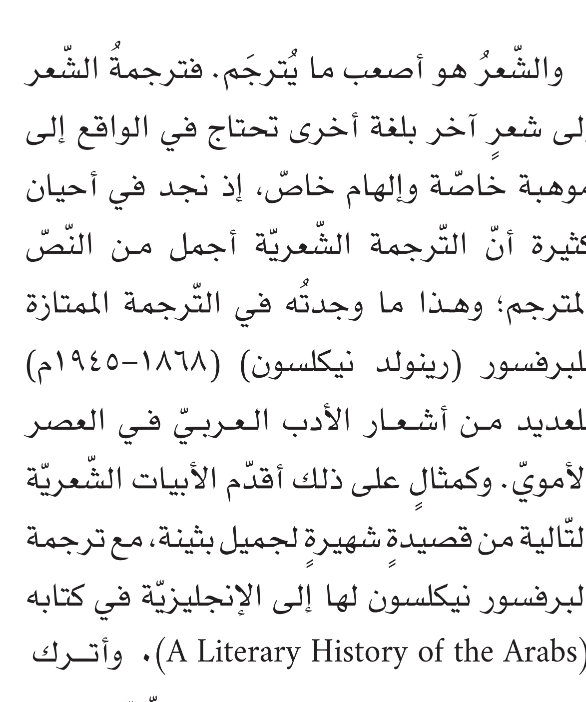
لا شكّ في أنّ التّرجمة فنّ وأنّ المترجم فنّانٌ مهنتُه نقل الأساليب والمعاني وتبيان النّصوص والشّعور بها عاطفيًّا وإنسانيًّا. واللّغة عند المترجم القدير ليستْ ألفاظًا وكلمات ميتة موجودة في المعاجم والقواميس، بل هي تعابيرُ حيّة تدلّ على روحيّة الكاتب وأساليبه في نقل المشاعر والأحاسيس والعواطف الموجودة في النّصّ الأصليّ المراد ترجمته. ولا بدّ أيضًا أن يتشرّب المترجم روح المؤلِّف ويتفاعل معها ويطرب لها ويحزن لأجلها، ولهذا لا بدّ أن ترسخ النّصوص نثرًا أو شعرًا في وجدانه وتستقرّ في خياله وذهنه.

ويحضرني هنا وصفُ الأديب الكبير عبّاس محمود العقّاد لإبراهيم المازنيّ بأنّه المترجِم الملهم «الذي استطاع بترجمته أن يردّ الكلام أصيلاً كأنّه لم يُكتب من قبل ذلك بلغة أخرى، ولم يصدر عن قريحة سابقة؛ فقد كان يترجم الكلام في سليقته قبل أن يترجمه لفظًا ومعنًى، فيجيش به كما جاش به صاحبُه، ويعبّر عنه بعد ذلك كأنّه ينقل قطعة من حسّه وخياله. ويصنع ذلك بالكلام المنظوم كما يصنع بالكلام المنثور، فإذا به قد نقل روحه وطلاوته وموسيقاه وما يتخلّل عباراته من ظلال المعاني المستترة وخفاياها المضمونة حتّى يخرج النّظمُ واضحًا في موضع الوضوح، قويّاً في موقع القوّة، مكنيّاً عنه في موضع الكناية».

وكلُّنا يعرف ترجمة الشّاعر الإنجليزيّ (إدوارد فتزجرلد)/ (Edward Fitzgerald) لرباعيّات عمر

* عضو مجمع اللّغة العربيّة الأردنيّ؛ أستاذ الأدب الإنجليزيّ.

الخيّام، حيث تصرّف فيها بطريقة تناسب أسلوبه الشّعريّ، ولكنّها تحافظ على ألق وروعة شاعريّة الخيّام.



والشّعرُ هو أصعب ما يُترجَم. فترجمةُ الشّعر إلى شعرٍ آخر بلغة أخرى تحتاج في الواقع إلى موهبة خاصّة وإلهام خاصّ، إذ نجد في أحيان كثيرة أنّ التّرجمة الشّعريّة أجمل من النّصّ المترجم؛ وهذا ما وجدتُه في التّرجمة الممتازة للبرفسور (رينولد نيكلسون) (١٨٦٨-١٩٤٥م) للعديد من أشعار الأدب العربيّ في العصر الأمويّ. وكمثالٍ على ذلك أقدّم الأبيات الشّعريّة التّالية من قصيدةٍ شهيرةٍ لجميل بثينة، مع ترجمة البرفسور نيكلسون لها إلى الإنجليزيّة في كتابه (A Literary History of the Arabs). وأترك الحكم إلى القارئ الكريم في جمال النّصّ العربيّ وترجمته الإنجليزيّة:

النّصّ العربيّ:

ألا ليتَ رَيْعانَ الشّبابِ جديدُ ... ودَهرًا تَولّى يا بُثَيْن يعودُ

فَنَبْقى كما كُنّا نَكونُ وأنتمُ ... قريبٌ وإذْ ما تَبْذُلينَ زَهيدُ

ألا ليت شعري هل أَبيتنَّ ليلةً ... بوادي القرى إنّي إذن لَسعيدُ

فهل أَلْقَيَنْ فَرْدًا بثينةَ ليلةً ... تَجودُ لنا مِن وُدِّها ونجودُ

عَلِقْتُ الهوى منها وليدًا فلمْ يَزَلْ ... إلى اليومِ يَنْمى حُبُّها ويَزيدُ

وأَفْنَيْتُ عمري بانْتظاريَ وعْدَها ... وأَبْلَيْتُ فيها الدّهرَ وهو جديدُ

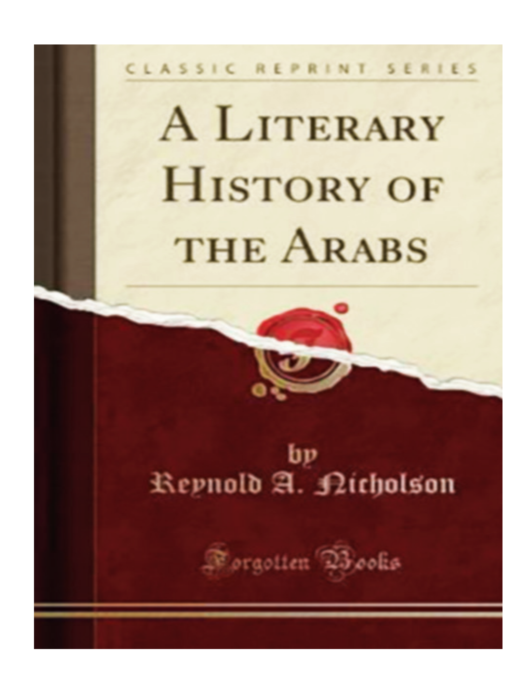
فلا أنا مَرْدودٌ بما جئتُ طالبًا ... ولا حُبُّها فيما يَبيدُ يَبيدُ

التّرجمة الإنجليزيّة:

Oh, might it flower anew, that youthful prime
And restore to us, Buthayna, the bygone time!
And might we again be blest as we wont to be,
When thy folk were nigh and grudged what thou gavest me!

Shall I ever meet Buthayna alone again,
Each of us full of love as a cloud of rain?
Fast in her net was I when a lad, and till
This day my love is growing and waxing still.

I have spent my lifetime, waiting for her to speak,
And the bloom of youth is faded from off my cheek;
But I will not suffer that she my suit deny,
My love remains undying, though all things die!



مَثَلان مَحْكيّان من اللّغة الإنجليزيّة

ديمة عابد *

تحمل كلُّ لغة بين طيّاتها مجموعةً من الأمثال والأقوال المأثورة المتداولة بين أفرادها، تبعث الحياة فيها فتضفي عليها طابعًا من الحيويّة والحكمة تارة، وطابعًا من الطّرافة أو النّقد اللّاذع تارة أخرى. والمَثَلُ جملةٌ من القول مقتطفةٌ من كلام، أو مرسلةٌ بذاتها، تُنقل ممّا وردت فيه إلى مشابهه بدون تغيير كما جاء في «معجم المعاني الجامع».

وحال اللّغة الإنجليزيّة في هذا كحال غيرها، تزخر بالعديد من الأمثال التي تُماثل في مضامينها ومدلولاتها تلك الموجودة في لغتنا العربيّة، وقد يكون المثل السائر بين النّاس فصيحًا أو عاميّاً. وهنا أُترجِمُ مثلينِ من الإنجليزيّة مع حكايتيهما، إلى العربيّة، مأخوذين من موقع (Africa short stories):

المثل الأوّل

(A bad workman always blames his tools)

The meaning of this proverb is...our success does not depend on what Kind of tools we have but how we use them. A person may have all the equipment in the world but if he does not know how to use them he can never complete a job successfully. Whereas a person who can make effective use of what is available with him can make a success of any work given to him. The same can be said of real life situations too. We

* بكالوريوس في اللّغة الإنجليزيّة.



must learn to hone our talents and tabs maximum benefit out of them and not blame destiny or fate when something goes wrong. Kumar and Ravi were two farmers who were neighbors. Both owned a pair of oxen each with which they ploughed their land. Kumar worked hard all day long in order to get a good yield and looked after his oxen very well since he knew that they were very important for his farming activity, Ravi on the other hand was a very lazy and a miser who never fed his oxen properly but extracted maximum work from them and kept complaining that they were not doing a good job. As a true friend Kumar advised and pointed out to Ravi that it was cruel to ill-treat the animals which were helping him make a living. Ravi paid little heed to Kumar's words. He soon bought a tractor to plough his land and chased the oxen away since he no longer needed them. Taking pity on the poor animals Kumar took them under his wing although he could ill-afford to maintain them.

The monsoon soon arrived and it was time for cultivation. Kumar's land was well ploughed and ready for cultivation- thanks to his oxen. Ravi in his miserly fashion had not maintained his tractor well and it kept giving him trouble. With the result, he could not get his land ready for cultivation on time. He lamented and blamed it all on bad luck not realizing that it was he who was responsible for his miserable state. Ravi not only lost out on a good yield by his laziness but also spent more money than required to repair his tractor due to poor maintenance. Despite having better equipment Ravi was unable to get the best results, whereas Kumar was a good workman and hence was able to succeed with the limited resources that he had.

(العامل غير الحاذق يُلقي اللّوم على أدواته دائمًا)

يَحمل المثل آنف الذّكر معنًى مفادُه أنّ نجاحنا لا يعتمد على نوع الأدوات التي نمتلكها بقدر اعتماده على كيفيّة استخدامها وتوظيفها. وقد تتوافر كامل المعدّات والأدوات اللّازمة للفرد. ومع ذلك؛ إنْ لمْ يُحسن استخدامها فإنّه لن يكون قادرًا على إكمال عمله بنجاح. أمّا مَن يُحسن استخدامَ المتاح له استخدامًا فاعلاً فإنّه -بلا شكّ- يستطيع أنْ يُحقّق نجاحًا في أيّ عمل يُوكل إليه.





ويَـصـدُق الـقـولُ نفسُـه علـى مـواقـف الحـيـاة ومجرياتها، ويتعيّن علينا أنْ نتعلّم كيف نوظّف مواهبنا وقـدراتـنـا لتحقيق الـقـدر الأقـصـى من المنفعة المَرجوّة منها، لا أن نلوم القضاء والقدر إذا ما انحرفت الأمور عن مسارها الصّحيح.

وفي الحكاية الشعبيّة الواردة هنا، كان (كومار) و(رافي) مزارعيْن لكلٍّ منهما أرضٌ بجوار صاحبه وزوجٌ مـن الـثـيـران يـحـرثـان بهما الأرض. كان (كومار) يعمل بجدّ واجتهاد لتكون أرضه بأفضل حال، وأدرك أهمّيّة ثورَيْه في العمل فأولاهما اهتمامًا وعنايةً كبيرة. وكان (رافي) كسولاً للغاية وشحيحًا فلمْ يُطعم ثورَيْه جيّدًا، وأنهكهما بأقسى الأعمال شاكيًا سوءَ أدائهما، وكصديقٍ صدوقٍ نصحَ (كومار) (رافي) لافتًا إيّاه إلى قسوته في معاملة الحيوانات التي كانت تُعينه على عمله. لكنّ (رافي) لم يأبه بكلام (كومار)، وسرعان ما اشترى جرّارًا ليحرث أرضه طاردًا ثورَيْه لأنّه لمْ يعد يحتاجهما؛ فأخذتْ (كومار) الشّفقةُ على تلك الحيوانات المسكينة فألزمَ نفسه أن يعتني بها رغم عدم قدرته على تكبّد تكاليف تلك العناية.

حان وقت الـزّراعـة، وسرعان ما هبّت الرّياح الموسميّة.. آنـذاك كـانـتْ أرضُ (كـومـار) بحال جيّدة وجاهزة للزّراعة بفضل ثوريه. أمّا (رافي) الـذي لم يكن يعتني بـجـرّاره فقد واجـه الكثير من المتاعب ولـم تكن أرضُـه جاهزة في الوقت المناسب، فألقى اللّوم على سوء الحظّ ولم يدرك أنّه هو المسؤول والملوم على ما صيّر نفسه إليه وعلى حاله الصّعبة. وبكسله لم يفقد العائدَ المـادّيّ حسبُ، بل أنفق المزيد من المـال لصيانة جرّاره المهمل وإصلاحه.

وعلى الرّغم من توافر معدّات أفضل، لم يتمكّن (رافـي) من الحصول على أفضل النّتائج، في حين كان (كومار) عاملاً جيّدًا فحقّق النّجاح رغم محدوديّة موارده. وقد قيل المثلُ في هذا المُزارع فتناقلتْه ألسنة العامّة.

المثل الثاني

(The pen is mightier than the sword)

The Power of a pen is Mightier than the Sword. The power that the written word carries is far more harmful and damaging than a sword. At best the sword can only cause physical harm that too by force. Whereas the written word is strong enough to influence many minds at a time. influence to the extent of even giving rise to revolutions and agitations against unjust/ unfair governance. Several important events in history have been the result of the powerful writings of the leaders of those times.

Although a sharp weapon like a sword does appear dangerous, the damage it can inflict on the human body can be healed. But the written word can make or mar a person of reputation and character. It can build or bring down governments. The weapons and the force can only hurt the people. But the people will not change their minds. The worse the force is applied, the stronger the people will become in their ideology. The force and wars will not change the mind-set of the people against whom the wars are declared.

It was Edward Bulwer Eytton who first coined this proverb in 1839. The proverb is: "Beneath the rule of men entirely great the pen is mightier than the sword". Take for example the struggle for freedom against the British in India. All our freedom fighters were constantly inspiring the common man to fight against the British with their powerful writings even when they were in prison. Great leaders like Gandhi preached ahimsa and non-violence. He achieved his dream of free India through this means and his objective proving that violence is not the means to success. Poets like Subramania Bartha adopted the medium of print to stir up the dormant spirit of the people. Through his writings in Swedesamitran, he inspired the masses to fight against the British. The result of those writings is right here for all of us to see a free India. There are many political leaders who have ignited the people against the wrong stance of their governments. The word SWORD does not literally mean the weapon which is used It refers to any kind of violent activity or use of force. In modern days it is used in the context of wars. People are no longer ready to be taken for granted. They believe in peace and any attempt at dictatorship or corrupt governance is questioned immediately. The press in fact is often referred to as the watchdog of democracy. There is ample evidence to prove this point.



(القلمُ أشدُّ بأسًا من السّيف)

يصرّح هذا المثل بأنّ الكلمة المكتوبة أمضى من السّيف وأشدّ فتكًا، فالسّيف في واقع الحال يُلحق الضّرر البدنيّ، بينما تُلحق الكلمة ما هو أبعد من ذلك بكثير؛ فهي تؤثّر في العديد من العقول في الوقت ذاته، وهو ما قد يفعّل الثّورات ضدّ الظّلم والاستبداد. وقد انبثقت العديد من الأحداث الفاعلة في التّاريخ إثرَ كتاباتٍ موجّهة كتبها زعماء تلك العصور.

ومن جانب آخر، فإنّ الجرح الذي يُلحقه السّيف بالبدن -وإن بدا خطيرًا- قد يندمل، بينما تنسلّ الكلمة لتنمّق فردًا أو تشوّه سمعته، وهي قادرة على التّحكّم في بناء الحكومات وإسقاطها على حدٍّ سواء، ولا غبار على أنّ للقوّة والأسلحة دورًا

خطيرًا في أذيّة الأفراد، لكنّها لا تمسّ فكرهم، وتعجز عن تغيير آرائهم ومعتقداتهم.

وممّا ينبغي أخذه بعين الاعتبار أنّ استخدام القوّة غير المنهج يزيد الأفراد تمسّكًا بمعتقداتهم وآيدولوجيّاتهم الرّاسخة. والحقّ أنّها لا تؤثّر في تغيير توجّه الأفراد والشّعوب تجاه الدّول التي أعلنت الحرب ضدّها.

ولعلّ أوّل مَن مهّد السّبيل لهذا المثل هو (إدوارد بولر ايتون) عام (١٨٣٩م)، الذي صاغ المثل القائل: «تحت حكم العظماء من الرّجال فإنّ القلم أشدُّ بأسًا من السّيف». ومنه اشتُقّ المثل الإنجليزيّ المذكور.

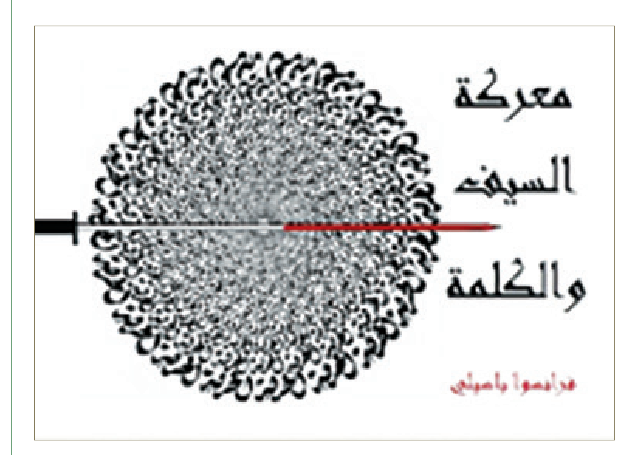
ضربة الكلمة أقوى من ضربة السيف

لويس باستور / Hekams.com

> كلمة «سيف» هنا لا تحمل الدّلالة الحرفيّة لها حسبُ، بل تتجاوزها لتشير إلى كلّ صنف من صنوف العنف أو القوّة المستخدمة

وباستعراض الفكر السّياسيّ في صراع الحرّيّة ضدّ البريطانيّين في الهند، نجد أنّ دعاة الحرّيّة جميعهم كانوا يُلهِمون بكتاباتهم المنظّمة الأفرادَ للكفاح على الرّغم من اعتقالهم.

ويَبرز أمامنا من الزّعماء العظام (غاندي) الذي بشّر بوقف العنف جاعلاً من حلمه في تحرير الهند حقيقةً ماثلة أمامه مستخدمًا الكلمةَ نهجًا له ومقيّضًا دعائم العنف كسبيلٍ للنّجاح.



وتبنّى شعراء كثيرون -مثل (سوبرامانيا بارثا)- النّهج ذاته في شحذ همّة الشّعب السّاكن، ومن خلال كتاباته ألهم الجماهير للقتال والثّورة، إذ أسفرت تلك الكتابات عن الصّورة الماثلة أمامنا جميعًا في حرّيّة الهند واستقلالها، وقد أضرم العديدُ من القادة السّياسيّين لهيب الثّورة ضدّ مواقف حكوماتهم المسيئة.

إنّ كلمة «سيف» هنا لا تحمل الدّلالة الحرفيّة لها حسبُ، بل تتجاوزها لتشير إلى كلّ صنف من صنوف العنف أو القوّة المستخدمة، وقد وُظِّفَتْ في الآونة الأخيرة توظيفًا مفادُه الحرب حرفيًا. ولم يعد الأفراد يُسلّمون لكلّ أمر كسابق عهدهم، فهم الآن يؤمنون بالسّلام، وبلا تردّد يشكّكون في أيّ محاولة للدّكتاتوريّة. وكثيرًا ما يشار إلى الصّحافة بالبنان لكونها الجهة الرّقابيّة للدّيمقراطيّة مع وفرة الأدلّة التي تعزّز هذه النّقطة.

من مشكلات التّرجمة

محمّد عصفور *

الحاجة للتّرجمة ترافق الوجود الإنسانيّ لأنّ الله سبحانه وتعالى خلق البشريّة شعوبًا وقبائل لتتعارف. والشّعوب والقبائل يستقلّ بعضها عن بعض في بقع جغرافيّة شبه منفصلة، ولذلك تجدها تتكلّم بلغات مختلفة، في داخل كلّ بقعة منفصلة أو شبه منفصلة بلهجات مختلفة حتّى في داخل الوحدة اللّغويّة الواحدة.

ولكنَّ هذه الشّعوب والقبائل تجد نفسها مضطرّة للتّعامل فيما بينها إمّا بسبب الحاجة المادّيّة أو بسبب الفضول، ولذلك فإنّها تُضطرّ للتّفاهم وللتّرجمة. وهذا التّفاهم يجعل استعارة لغةٍ لكلماتٍ من لغة أخرى أمرًا شائعًا تمامًا.

ولو نظرنا في تاريخ اللّغة الإنكليزيّة على سبيل المثال لوجدنا أنّ عدد المفردات التي استعارتها من اللّغة الفرنسيّة يكاد يصل إلى خمسين بالمئة من مفرداتها، مع أنّها من اللّغات الجرمانيّة، بينما تنتمي اللّغة الفرنسيّة إلى عائلة اللّغات الرّومانسيّة ذات الأصل اللّاتينيّ.

اللّغة العربيّة في العصر الحديث محتاجة إلى كثير من التّرجمة في شتّى المجالات، خاصّةً في مجال العلوم الطّبيعيّة، ولذلك تنشأ فيها الحاجة إلى وسيلتين من وسائل التّرجمة هما الاستعارة والنّحت. ولا شكّ في أنّ الاستعارة أسهل الطّرق لإغناء اللّغة، خاصّةً عندما تكون المستعارات أسماءً لأشياء كأسماء العناصر الطّبيعيّة مثل (الأوكسجين والبلاتين والمنغنيز) وما إلى ذلك، وأسماء المصنوعات مثل (الجينز والمايونيز

* عضو مجمع اللّغة العربيّة الأردنيّ؛ أستاذ الأدب الإنكليزيّ.

والمعكرونة) وغيرها.

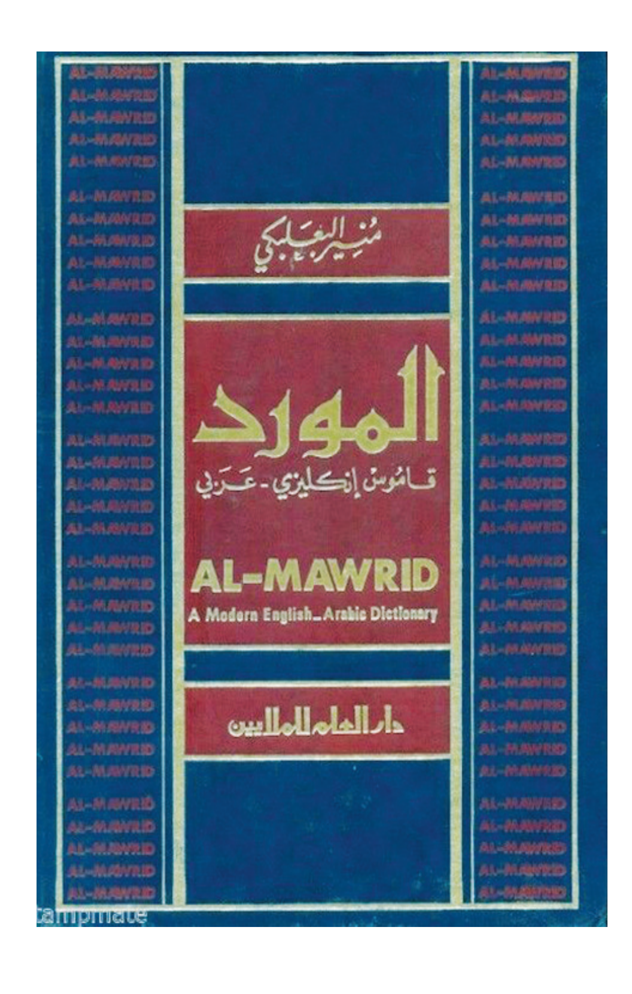
وقد جاء وقتٌ استعرنا فيه (الأوتوموبيل والترين والبسكليت والكمبيوتر)، لكنّنا تمكّنّا مع مرور الوقت من إحلال بدائل لهذه فقلنا: سيّارة، وقطار، ودرّاجة [هوائيّة وبخاريّة]، وحاسوب. مع أنّ هذه المستعارات اضطرّتنا أحيانًا إلى إدخال أصواتٍ لم تكن جزءًا من أصوات اللّغة العربيّة، وهي الأصوات التي ابتكرنا لها الحروف: پ/ڤ/غ/چ، التي تقابل: CH/G/V/P على التّوالي.

غير أنّ ما يهمّني هنا أكثر من استعارة الأشياء وأسمائها استعارة المفاهيم والأفكار، وما يترتّب عليها من اشتقاقات تحتاجها اللّغة، وبخاصّة الأفعال.

لقد استعرنا مفاهيم مثل: المكننة والأتمتة والتّلفزة والرّقمنة، ووجدنا أنّ من الممكن أن نشتقّ أفعالاً منها هي: يُمَكْنِن، ويُؤَتْمِت، ويُتَلْفِز، ويُرَقْمِن، ولكنّنا اصطدمنا بصعوبة اشتقاق الأفعال من ديمقراطيّة وديناميكيّة ورومانسيّة وكلاسيكيّة، وذلك لأنّ اللّغة العربيّة لا تسمح باشتقاق الأفعال من جذورٍ يزيد عدد أحرفها على أربعة أحرف، ولا تجيز لنا أن نتحدّث عن الدّمقرطة.

ومع أنّ الاشتقاقين: الدّقرطة والمقرطة ممكنان، إلّا أنّنا نحسّ بأنّهما يفتقدان عنصرًا مهمًّا لاستكمال المعنى، وهو إحساس غير قابل للتّعيين إلّا بالعودة إلى السّليقة العربيّة التي تسمح باشتقاق الأفعال من الجذر الثّلاثي أو الرّباعيّ، ولا تسمح به من الجذر الخماسيّ.

لقد اجتهد منير البعلبكيّ في **قاموس المورد** فوضع كلمة «يُكَمْتِر» مقابل (computerize) فلم



يقبلها منه أحد. أمّا حسن الكرميّ فقد اشتطّ في الاجتهاد وأعطى هذه العبارة في مقابل الكلمة نفسها: «أعمل (مكانًا) بالآلات الحاصية؛ اختزن المعلومات في آلة (أو آلات) حاصية»، والآلة الحاصية عنده هي ما اعتدنا على تسميته بالحاسوب.

كلمة «يُكَمْتِر» سقطت لأنّها فقدت عنصرًا أساسيًّا من عناصرها، وكلمة «الحاصية» ظلّت أسيرة **المغني الأكبر** لأنّ مفردات اللّغة لا يبتكرها واضعو القواميس بل مستعملو اللّغة. أمّا القواميس فتسجّل ما ورد في اللّغة، وتورد أحيانًا أمثلة من التّراث، قديمِه وحديثِه، للتّمثيل على المعاني التي استقرّت. لكنّ هذا التّمثيل ينحصر عادةً في القواميس الموسوعيّة.

مَن هو الذي يحقّ له ابتكار الكلمات ليضيفها إلى اللّغة؟ هو في العادة المترجم الذي يبحث في لغته القوميّة عن مقابلٍ للكلمات التي يجدها في النّصّ الأجنبيّ. في تراثنا العربيّ واجه المترجمون الأوائل الذين ترجموا عن اليونانيّة مئات الكلمات التي لا مقابل لها في اللّغة العربيّة فاضطرّوا لتعريبها بدرجات متفاوتة من النّجاح، فدخل كثير منها إلى القاموس العربيّ، ولم يعد يجادل في أصالتها أحد، كلمات مثل الفلسفة والجغرافية، والفيزياء، والكيمياء، والسّبانخ (الإسباناخ) بينما بقيت كلمات مثل: الأُسطُقسات، والإهليلج، والأسطرلاب مدفونة في الكتب التّراثيّة:

و(الأُسطُقس) -حسب **المعجم الوسيط**-: الأصل البسيط يتكوّن منه المركَّب، والأُسطُقسات: العناصر الأربعة عند القدماء؛ وهي الماء والهواء والنّار والتّراب. و(إِهْلِيلَجُ) -حسب **معجم المعاني**- أو إِهْلِيلِجُ، والواحدة: إِهْلِيلَجةٌ أو إِهْلِيلِجَة: ثَمَرٌ معروف، منه أصفرُ، ومنه أسودُ، وهو البالغُ النّضيجُ، ومنه كابِلِيٌّ ينفع من الخَوانيق، ويَحفظ العقل ويُزيل الصُّداع، وهو في المَعِدَة، كالكَذْبانونَة في البيت، (وهي المرأة العاقلة المُدبِّرة).

وفي العصر الحديث تعرّبت كلمات مثل (السينما والراديو والتلفزيون) بينما بقيت كلمات مثل (الكاسيتات والسكانَر والدينمو) ذات صبغة أجنبيّة. لكنْ ظهرت في العصر الحديث مؤسّسة لم تكن موجودة في العصور السّابقة، هي المجامع اللّغويّة التي أخذت على عاتقها وضع مقابلات للمصطلحات الأجنبيّة، وقد تجمّعت لديها ولدى مكتب تنسيق التّعريب التّابع للمنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم كمّيّةٌ ضخمة من المصطلحات المقترحة للاستخدام في المجالات المختلفة، ولكنّ الاستفادة منها تبقى محدودة في غياب القرار السّياسيّ القاضي بتعريب التّعليم وجعله إلزاميّاً، لأنّ الألفاظ تبقى حيّة إذا استُعملت ودرجت بين النّاس، أمّا إذا حُشِرت في قرارات المجامع وفي القواميس فإنّها تختنق وتموت.

تبقى هنالك مشكلة لها علاقة بطبيعة اللّغة من حيث قبولها أو عدم قبولها لعناصر لغويّة موجودة في لغة من اللّغات ولكنّها غير موجودة في لغة أخرى، وسأركّز في هذه العجالة على ما يدعى بالسّوابق أو (prefixes) باللّغة الإنكليزيّة.

هذه العناصر اللّغويّة تساعد في تطوير الدّلالات اللّغويّة لجذر الكلمة على نحو قد يبدو للمترجم أو المعرِّب جذّابًا يغري بالتّقليد. وقد خضع منير البعلبكيّ في قاموسه المعروف لهذا الإغراء فجاء باشتقاقات غريبة منها:

بَيْمكتبي	interoffice	بَيْشخصي	interpersonal
بَيْكوكبي	interplanetary	اللّامُتَخرّج	undergraduate
تَحْأرضي	underground	تَحْبَحري	undersea

بعديدكتوراتي	postdoctoral	خلفيمِحْوَري	postaxial
خلفيقلبي	postcardinal	خلفيأنفي	postnasal
بعديطوفاني	postdiluvian	سيريذاتي	autobiographic

وبالغ كمال أبو ديب في تقليد اللّغة الإنكليزيّة بحيث امتلأت ترجمته لكتاب «الاستشراق» لإدْوَرْد سعيد بكلمات مثل:

الاجتصادي	Socio-economic	الاجتماسي	Socio-political
الشعريّات	Poetics	الإغريلاتيني	Greco-Latin
اقتباس رُشَيمي	Epigraph	التَّكَوْكُبِيَّة	Satellite relationship
الجغراسي	Geopolitical	زا-جامعي	Extra-academic
الزيـ - علمي	Pseudo-scientific	عسكرانية	militaristic
عوالمي-مدائني	Cosmopolitan	ليـ-جنسي	Asexual
ليـ-تاريخي	Ahistorical	ملهاوي	Tragicomic

وقد يستغرب الكثيرون من هذه المصطلحات التي ابتكرها، ولكنّ كان له نصيبٌ من المعجبين، لا بل إنّ إدورد سعيد نفسَه وصف ترجمته بأنّها (remarkable)، ووجد نذير جزماتي أنّ تلك التّرجمة بلغت من الجودة درجةً جعلته ينسخ الكتاب كلّه بقضِّه وقضيضه ويدّعي أنّها ترجمته في صيغة **الاستشراق** التي نشرتها دار نينوى بدمشق سنة (٢٠١٦م).

المأساة اليونانيّة كانت تتناول حياة شخص متميّز في قواه العقليّة والجسديّة، هو في العادة مَلِكٌ أو قائد عظيم

أودّ في ختام هذا الاستعراض لبعض مشكلات التّرجمة أن أذكر مَثَلين فيهما بعض الطّرافة. فعندما تُرْجِم كتاب أرسطو عن فنّ الشّعر في القرن الثّالث الهجريّ ورد مصطلحان أساسيّان فيه هما ما ندعوه بالمأساة والملهاة في هذه الأيّام.

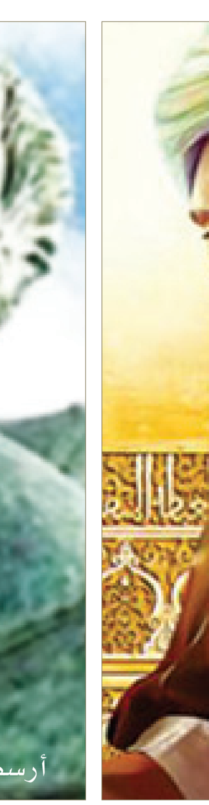
وبما أنّ العرب لم يعرفوا فنّ المسرح فإنّ المترجم لم يجد مهربًا من المشكلة سوى باستيراد المصطلحين



اليونانيّين الأصليّين، وهما (طْراغوذيا وقوموذيا)، وليس في ذلك من عيب لأنّنا ما زلنا نستورد الكلمتين بصيغتهما الإنكليزيّة.

لكنّ ابن رشد الذي كتب شروحًا مهمّة على أعمال أرسطو لم يستعمل الكلمتين بل استعمل كلمتَي (المديح والهجاء) مقابلهما. هل كان مخطئًا؟ أنا أقول إنّه لم يكن مخطئًا، وذلك لأنّ المأساة اليونانيّة كانت تتناول حياة شخص متميّز في قواه العقليّة والجسديّة، هو في العادة مَلِكٌ أو قائد عظيم، ولكنّه يرتكب خطيئة لا يسامحه عليها المجتمع، ولذلك فإنّه يعاقَب بالموت. وكذلك قصيدة المدح عندنا: إنّها تتناول شخصيّة من علية القوم وتصفه بكلٍّ ما يرى المجتمع أنّه يستحقّ المدح والإطراء. ومع أنّ قصيدة المدح العاديّة لا تنتهي بموت الممدوح، فإنّ الصّيغة الأخرى من قصيدة المدح، وهي قصيدة الرّثاء، تكمّل ما بدأته قصيدة المدح وتمدح الممدوحَ أو المرثيّ، وتضعه في عداد الخالدين، وهي لذلك تعبير عما تتضمّنه المأساة ولكن بواسطة السّرد وليس التّمثيل. انظر:

https://www.startimes.com/f.aspx?t=22129110



ابن رشد



أرسطو

أمّا (القوموذيا) أو الكوميديا فكانت الشّخصيّة الرّئيسة فيها شخصيّة أدنى منّا نحن النُّظّارة من حيث الذّكاء والقيم الأخلاقيّة. إنّها شخصيّة نعاقبها بالضّحك عليها وليس بقتلها أو إبعادها من المجتمع. نعاقبها بفضحها وهجاء صفاتها الجسديّة والعقليّة؛ (الهجاءُ بمعنى (satire) وليس بمعنى (invective). وممّا يؤسف له أنّ الغالبيّة العظمى من شعر الهجاء عندنا تنتمي إلى النّوع الثّاني. وهذا موضوع يستحقّ وقفة أخرى).

لكنّ المصطلحين العربيّين لم يكتسبا القدر الكافي من الشّيوع في النّقد المسرحيّ وظلّا أسيرين للتّقاليد النّقديّة العربيّة، لأنّ فنّ المسرح لم يتطوّر عندنا إلّا في أواخر القرن التّاسع عشر وأوائل القرن العشرين، بعد أن أخذْنا نستعير كلّ شيء من أوروبا الحديثة، وبعد أن صار أسهل علينا أن نفهم المصطلح بالعودة إلى راسين وموليير، أو إلى شيكسبير وأوسكار وايلْد.

زاوية

قراءة في كتاب

قراءة في كتاب «حماسة الشّهداء»
للدكتور خالد الكركي

خليل الزّيود

مراجعة كتاب «في زمن الموجة الشّرقيّة»
للدكتور عيد عبد الله الدحيات

كَتَبَها حَنّا سعادة
وتَرْجَمَها: جعفر عبابنة





قراءة في كتاب «حماسة الشّهداء» للدكتور خالد الكركيّ

خليل الزّيود*

«حماسة الشّهداء» عنوانُ الكتابِ الرّئيسُ، إضافةً إلى عنوان شارح (رؤية الشّهادة والشّهيد في الشّعر العربيّ الحديث). وقوامُه مَطْلَعٌ وثلاثة أبواب وملحق، وقد توزَّع ليلقي بظلاله على قوله تعالى {عند ربّهم يرزقون}، فنظر الكركيّ في تجربة الشّعر الحديث وعلاقته بالشّهادة والشّهيد، وكان سفره دليلاً للجيل الذي يصعد نحو الله بالخوف والرّجاء والأمل مادّةً حيّة...

هذه محاولة لتقديم قراءة في هذا الكتاب. وكلّما طالعتَ هذه الحماسةَ شعرتَ أنّك في حماسة فتعيد القراءة!

ما إنْ تطالع مادّةً مرئيّة أو مرقومة أو مسموعة أو منقولة للدكتور خالد الكركيّ حتّى تتّفق هذه الموادّ على ثلاثيّة الوطن والشّهادة والمتنبّي، وما



* باحث في العلاقات الإنسانيّة.

إن تحاول أن تفضي إلى ضفّة القراءة في أيّ كتاب تجد للشّهادة مكانًا، بل لقد انفردتْ دراسة جعلت من الكبير إحسان عبّاس الذي قدّم للكتاب يملأ صفحتين إعجابًا بالبحث الذي تقصّى أطراف الشّهادة والشّهيد في الحسّ الشّعريّ العربيّ الحديث، يقول: «إنّ الدكتور الكركيّ قد اهتدى إلى مفاتيحَ جديدة في تشكيلات الرّموز والصّور الشّعريّة حين جعل العمل الفنّيّ من الدّاخل مجالاً لرؤية أحكامه السّديدة».

ويبيّن عبّاس أيضًا كيف أنّ الدّراسة استطاعت أن تفضي إلى مجموعة من التّمثّلات المتعلّقة بالشّهادة والشّهيد كي تصل إلى ذروة الحالة الفنّيّة التي تسمّى (عشق الشّهادة)، وتبقى تلك العبارة التي عنْوَنَ بها عبّاس شهادته في الكتاب «المرآة الصّادقة» هي العنوان الشّارح لعنوان الدّراسة الجادّة.

ويشير عبّاس إلى تلك الزّاوية التي خصّها الكركيّ في تسليط ضوء الشّهادة عليها (الزّاوية الفنّيّة) فيقول: «وإذا كان الدّارس الصّديق قد اختار زاوية الفنّ مدخلاً لهذه الظّاهرة النّبيلة، فقد ترك للمؤرّخين مسؤوليّة الالتفات إلى الأسباب والنّتائج...».

إنّ النّاظر في فهرس (الحماسة) يشعر بالحماسة أنّ عناوين الكتاب تحمل في طيّاتها مادّةً حقيقيّة تفضي إلى معنًى يليق بالعنوان، فنجد أنّ الصّفحات من الخامسة عشرة إلى الرّابعة والثّلاثين تحمل عنوان (مطلع وإضاءة)، وهذا يشي بما كانت عليه القصيدة العربيّة وهي تضيء في أبياتها الأولى إلى بيان أعتاب القصيدة، وهو ما جرى عندما حمل المطلع تسليمًا



على الشّهداء، ويكأنّ الكركيّ يقف على ربوةٍ ينظر إلى الشّهداء ويلقي عليهم تحيّة بآية قرآنيّة تبشّرهم بالحياة والرّزق، وتفضي بك الإضاءة إلى فكّ الالتباس بين الشّهادة الّتي يريدها الإسلام وغيرها من تلك المجازفات غير المحسوبة، فهنا ينبّه الكركيّ إلى القيمة الحقيقيّة لما يريد أن يشير إليه بل يشجّع عليه، وهو الذّهاب بالنّفس إلى اللّه لا إلى الشّيطان. والفرق بينهما يُجلّيه في المطلع والإضاءة والبيان لأكثر القيم الإنسانيّة نبلاً وكرامة.

وتبقى الشّهادة هي التي تشكّل فجرَ الأمّةِ ونضالَها، وتبقى الإضاءة ماثلة في أنّ الموت في سبيل اللّه هو الغاية، وأنّ الشّهداء هم نجوم السّرى في زمن التّيه.

ويجمع الكركيّ شتات المطلع والإضاءة بقوله: «...ثمّ يمتدّ نهْر من الدّم والفداء عبر السّهول والجبال والوديان في أرض الفتح والرّسالة، ويكون حمزةُ سيّدُ الشّهداء نجمَ الإسلام الذي تتشكّل حوله رؤى التّعبير الأولى»، وقبل أن يقفل المطلع والإضاءة يشير -وهو يربط العصور بعضَها ببعض- إلى رائعتين من روائع الأدب العربيّ في الحرب والجهاد والشّهادة بقول أبي تمّام في عمّوريّة: «السّيف أصدق إنباءً...» ويعطف عليها بتحفة المتنبّي «على قدر أهل العزم...».

ويبقى الخُلق مذمومًا إنْ وُصف بالوعورة إلّا في موطن الكفاح ضدّ مغتصب الأرض؛ فهنا يكون الخلق الوعر سمة وقيمة لا يفطن إلى غورها إلّا مَن تأمّل قول اللّه تعالى ﴿عند ربّهم يرزقون﴾.

> إنّ النّاظر في فهرس (الحماسة) يشعر بالحماسة أنّ عناوين الكتاب تحمل في طيّاتها مادّةً حقيقيّة تفضي إلى معنًى يليق بالعنوان

ثمّ يفتح الباب المعنون بـ(الشّهادة والشّعر: بهجة الموت والحياة)، وهذا تقابلٌ ظاهر لكنّه ترادف في عميق (النّبش) بالنّتائج التي تفضي إليها الشّهادة، فهي ميلاد جديد لكنّه للرّوح قبل الجسد وللفكرة قبل وسائلها، فتجده يشدّ عنان الباب الأوّل بشرط الحرب الأولى بأنْ تسلم أعراضٌ لنا وعقول، فيبدأ بالدّم والصّليل حاملاً روحَ القلم على راحته، مُيمّمًا شطر الوطن ليجعلها في خندق بين الوطن والأعداء فيقول: «لقد اقترنتْ بطولاتهم بالحقّ والدّفاع عنه، وصاروا حالاتٍ إنسانيّةً تبشّر بحضورها الدّائم، بأنّ الحياة تستحقّ الحياة، لكنّ الدّفاع عن شكلها الأجلّ والأنبل، شكل الحرّيّة والحقّ والعدل يجعلها تستحقّ الشّهادة في سبيل اللّه حتى تظلّ رايةُ الحقّ عالية، والكرامة مصونة، والحرّيّة باقية؛ لأنّهم عنها -حتى وإن غابوا عن أنظارنا- يدافعون».

وتظلّ العبارة الخالدة للباحث بأنّ الاختيار بين «حياة تسرّ الصّديق أو ممات يغيظ العدى» لا يكون بالحياد بل بالاختيار والوعي والقرار، وهذه هي الشّهادة، لأنّ الكبير عبد الرّحيم محمود يقول:

لَعَمْرُكَ إنّي أرى مَصْرعي

ولكن أغذّ إليْه الخُطى

يقرّر الكركيّ أنّ الشّهداء عند الشّعراء في أعلى الخالدين فيقول: «الشّهداء عند الشّعراء أعلى الخالدين، قد نوسّدهم الثّرى وقد نسلّمهم إلى مضاجعهم دون جنازات، لكنّهم خالدون، ولا مجال للسّؤال:

لا تقل أين جسمُه

واسمُه في فم الزّمن

إنّه كوكب الهدى

لاح في غَيْهب المِحَن

وهنا يتّصل القول بالإيقاع عندما يربط بينهما باستحضار قول الكرميّ بأنّ عبق الشّهيد على الشّهيد دليلُ...

ويبقى الشّاعر يستلهم قصيدته من الشّهيد لا العكس، ويفضي بنا الكركيّ إلى رائعة سليمان العيسى «تعانقَ النّسرُ والتّاريخ ملحمةً...» حتّى يصل فيها إلى الذّروة بقوله: «افتح جناحيك يا تشرينُ مُدَّهُما...» ويصل بنا إلى عنوان فرعيّ في هذا الباب وهو (الذّبيح الصّاعد) الذي اتّكأ عليه في ديوان مُفدي زكريّا شاعر الجزائر وناحت سلامها الوطنيّ، وهو يقسم بربّ النّازلات... وهنا يضيء كمّاً هائلاً من التّساؤلات التي تشدّ الشّهيد قبل ميلاده الجديد نحو التّباطؤ حيث الأهل والذّكريات والحياة والنّاس والأحلام.. كلّها أسئلة مشروعة في عالم الدّنيا، ولكنّ (حماسة الشّهداء) بما فيها تعين الشّهيد أن يكون شهيدًا، فيقول: «هذه بعض الأسئلة الصّاخبة في فضاء هذه الدّراسة، فالقصائد هي حماسة الشّهداء، نتمنّى أن يكون أوّلاً في مختارات الشّعر العربيّ، ففيه يجتمع تاريخ مقاتلهم، وإيقاع أناشيدهم في الزّمن المكفهرّ، ويصير الشّعر لوحاتٍ فنّيّة خالدة زاهية الألوان والتّشكيل يرفعها أهل الشّهداء وأبناء الأمّة على جدران منازلهم، ويجعلونها نقوشًا على جدران صروحهم وأضرحتهم، ودفاتر أطفالهم».

وهنا يصعد القول ومقوله على أعتاب الحرف عند الأنباريّ وهو يرثي صديقه ابنَ بَقِيَّةَ ليصل به إلى الذّرى في قوله:

كأنّكَ واقفٌ فيهم خطيبًا

وكلُّهمُ قيامٌ للصّلاة

ثمّ يَنْهَدُ الرّبط بين الزّهاويّ والمتنبّي في جعل الشّهادة والعشق مترادفين في المعنى بين ليل الخائفين وليل العاشقين، وهنا يعلّق الكركيّ: «... يتقدّم الشّهداء مجلّلين بالصّبر والرّضا لأنّهم أصحاب قضيّة، ولأنّهم يعرفون أنّ الشّهادة طريق الحرّيّة والخلود معًا، الحرّيّة للأوطان والخلود لأنفسهم».

وهذا ما أراد البحث أن يقوله، كما قاله عمر أبو ريشة:

فكأنّ الحِبالَ قد ضَفَّروها

مِن شرايين أمّةٍ مغلوبة

ويمتدّ الصّوت حتّى يصل أحمد زبانا وهو يؤكّد أنّ الوطن يبقى بعد الشّهيد وقبله فيقول:

أنا إن متّ فالجزائر تحيا حرّة مستقلّة أن تبيدا...

ويستمرّ الكركيّ في الغوص متنقّلاً بين

مرجانات كثيرة في أصداف المحيط بين رائعة طوقان في (الثّلاثاء الحمراء) وهي الإشارة العروبيّة الخالدة نحو فؤاد حجازي ومحمد جمجوم وعطا الزّير عندما صعدوا إلى الله في يوم الثّلاثاء ذي العويل الصّادر من ناقوسه والنّواح المرافق لأذانه والمنحوس نجمه، ويصف الباحث تلك اللّحظة بأنّها جعلت كلّ شيء عاصفًا وهائجًا..يشبّهه بمحاكم التّفتيش وبيع الشّرفاء بيد العبيد حتّى نصل إلى صوت كربلاء فيقول: «إنّ علّون الحويزيّ وبلال فحّص وسناء محيدلي يشكّلون جيلاً يعزّز مفهوم الشّهادة ويجدّدها في جدل الوعي والموت ويبقى الصّوت يردّد أسماءً جديدة في عالم الشّهادة مثل سناء ونزيه وبلال وراغب».

وهنا نصل مع الكركيّ في هذا الباب إلى وحدة الأصوات في صوت الشّهيد وهو ينزّ في صورةٍ باهرة: «وأطلّ من جسدي على جسدي بل لكأنّني الأضداد في رجل تقاتله وحوش يديه، وهنا يصل صوت الأجداد ينتظرون في فوضى اشتعالاتي لينقشع الغبار»... وتبقى «رَكَزوا رفاتك» التي جاء بها الكركيّ في احترافيّة واضحة كي يشير في هذا العنوان إلى أنّ صرح الشّهيد الحقيقيّ هو في مواجهة الغازي، وكان الكركيّ يستنهض الجيل والشّعراء كما استنهض شوقي الوادي برفات المختار... فشوقي -كما يقول الكركيّ- جعل الشّهيد في ثلاثيّة مضيئة وهي الجرح والضّحيّة والسّيف، وهنا يصل الكركيُّ شوقي بالزّهاويّ في جعل الموت رحيلاً:

لقد ركبوا طورَ المنايا يَحثّهم

إلى الموت مِن وادي الحياة رحيلُ

ويبقى في اللّغة والحنين والرّؤى والحضور في كلام الشّعراء الشّيء الكثير، وهنا يصل صلاح عبد الصّبور كي يخبرنا بأنّ الجرح في وجه الشّهيد مباح... ويمتدّ القول برفقة الكركيّ في احتفاليّة الوداع فيقول: «إنّ مشهد الجنازة/ العرس، صفحة من تاريخ أبطال عاديّين وفقراء يحلمون بالمجد البعيد الذي ظنّوا أنّه لا يأتي إلّا في الحلم، فإذا به يعانقهم ويهنّئهم، ويكتب في دفاتر أطفالهم اسم شهيدهم، ويعدهم بكتابته على الضّريح والصّرح والغيم والنّجوم»، وهنا يبدأ في النّظر إلى بزيع وهو يشير:

تمشي جنازته الهوينا

وأنت تشاهدها وهي تمشي الهوينى ثمّ:

تشمّ قميصه

وتُعشّبُ الأيّام مِن دَمِهِ البهيّ

هنا يعلّق بأنّ هذا الشّهيد هو الذي يروّض القمح العنيد وهو يعود ملفوفًا بعَلم ممزّق وكيسِ رمل... ويقفل هذا الباب بـ«لحن الرّجوع الأخير»، ويختار الكركيُّ العازفَ على الحروف حجازي في (نوبة رجوع):

كان صوتًا ما ينادي؟

فتعود من وراء الأفق أسراب الحمائم

تدور في شمس المغيب دورة وتفترق

كان صوتًا ما ينادي



وهنا يمدّ الكركيّ يده ليفتح لنا بابًا جديدًا ويقرع على جرسه «الخالدون: الجيل الأوّل»، ويبدأ الجيل الأوّل بنفسٍ تخاف العار...

يبدأ هذا الباب بتأمّلٍ وتمنٍّ ولوحة يكاد ضياعها الماثل للعيان يكون أمامنا فيقول: «بين سنتي ١٩١٦ و١٩٩٦ (تاريخ كتابة هذا البحث) ثمانون عامًا كانت كافية لاستكمال نهضة الأمّة لو قيّض لثورتها الكبرى أن تستمرّ، ولحكومتها الأولى في دمشق أن تبقى، ولأحلامها في التّحرّر والمساواة والوحدة أن تتحقّق، لكنّ الاستعمار، بأشكاله وألوانه ومطامعه، ماطَلَ ومزّق وخرّب حتّى جاء المخاض موزّعًا على أرض الأمّة، فخرجت أقطارها من رقعة الاستعمار...».

ويبدأ البحث ميمّمًا شطره نحو الدّم الأوّل «سليمان الحلبيّ»... وهنا –بعد وصفه حال الغزو الفرنسيّ على مصر– يصعد باللّغة والشّهيد «عندما كانت هذه الأحداث تحرّك الواقع الرّاكد

مشهد الجنازة/ العرس، صفحة من تاريخ أبطال عاديّين وفقراء يحلمون بالمجد البعيد الذي ظنّوا أنّه لا يأتي إلّا في الحلم، فإذا به يعانقهم ويهنّئهم

في المنطقة التي تشهد صدمة خيبتها، بمبادئ الثّورة الفرنسيّة، كان فتًى أزهريٌّ من حلب اسمه سليمان يستعيد كلّ اللّاءات التي ضمّها تاريخ المناضلين ضدّ الغزاة والمستبدّين؛ ويخرج من حلب طاويًا الطّريق التي سارها قبله المتنبّي غاضبًا، وصلاح الدّين الأيّوبيّ ثائرًا، ويصل إلى مصر لغاية واحدة أن يقتل قائد القوّات الفرنسيّة على مصر الجنرال كليبر ١٧/٦/١٨٠٠م».

وهنا يستعيد صوت ابن اليمن كي يحدّثنا عن ابن حلب وهو في مصر لقتل الفرنسيّ الغازي..

جثّتي في حلب العمياء

في الفسطاط رأسي

ودمي نهر الفرات

وأمّتي أمّة منزوعة العينين

في سوق الغزاة

لم تعد تجدي طبول الكلمات

ثمّ يتّصل الحلبيُّ بزهران شهيدِ دنشواي وهي الهبّة الشّعبيّة التي كانت بعد ثورة عرابي بعقدين وفيها بلغ المخاض والنّضال المصريّ ذروته عام

١٩١٩م، فزهران يحضر في قصيدة صلاح عبد الصّبور في لحظة الإعدام ورأس زهران يتدلّى...

وثوى في جبهة الأرض الضّياء

ومشى الحزن إلى الأكواخ

تنّين له ألف ذراع

كلّ دهليز ذراع

من أذان الظّهر حتّى اللّيل

يا الله

وهكذا يمتدّ خيط الدّم ليصل إلى السّودان لتاج الدّين الذي قاد قوّات المساليت (اسم قبيلة) في غرب السّودان ضدّ الفرنسيّين وصعد شهيدًا في معركة النّصر ١٩١٠م.

ويرسم الفيتوريّ صورة دامية لهذا التّاج:

فوق الأفق الغربيّ سحاب أحمر لم يمطر

والشّمس هنالك مسجونة

تتنزّى شوقًا منذ سنين

والرّيح تدور كطاحونة

حول خيامك يا تاج الدّين

وهنا تصل الرّاية الممهورة بالدّم إلى شهداء الثّورة العربيّة الكبرى، ويلقي الكركيّ التّحيّة على حماة الدّيار بصوت فؤاد الخطيب وهو ينادي بنا أنّ:

جريحهم كقتيلهم وأسيرهم

نهب يراوحه الرّدى ويغادي

وهنا يمتدّ الصّوت للزّهاويّ في «النّائحة» ليبكينا فيقول:

وإنّ بكائي اليوم لو ينفع البكا

عليهم وفي مستقبلي سيطول

وهذه الرّاية مرسوم عليها قول الطّائيِّ العظيمِ أبي تمّام: «الخلق الوعر»: يوسف العظمة.. وخير مَن يصعد بطموح العظمة هو إيليا أبو ماضي عندما قال:

بأبي وأمّي في العراء موسّد

بعث الحياة مطامعًا ورِغابا

هنا تنفّس مع الخالدين في الحرّيّة الحمراء لثورة سوريا ١٩٢٥م إلى ١٩٢٧م فكان الوصف والفجع إلى الرّثاء والحماسة لنجد في ثورتهم أسماء نازفة فنجد سلطان الأطرش ومريود وحسن الخراط وفؤاد سليم، ليبدأ الكركيّ هنا باستحضار شعراء هذه الحرّيّة الحمراء من شوقي إلى شكيب أرسلان والكاظميّ وزركلي وصيدح وأبو شادي والشريقيّ ورضا الشّبّيّ

يصل بنا الكركيّ إلى ذروة الشّهادة، تلك التي تضاءلت الحروف في حضرتها..
هنا المختارُ الشّيخُ عمرُ شيخُ الشّهداء كلّهم كما كان حمزة سّيّدَ الشّهداء

وخليل بك مردم، وكلّها تهيب بأن ينصر العرب إخوتهم من السّوريّين، وهنا البِزْمُ -وهو شاعر كبير- ينكز القول:

لا زلتَ تُوهَبُ تمكينًا على ظَفَر

وتُوْسِعُ القومَ تمزيقًا وإثخانًا

وهنا أيضًا يصل بنا الكركيّ إلى ذروة الشّهادة، تلك التي تضاءلت الحروف في حضرتها.. هنا المختارُ الشّيخُ عمرُ شيخُ الشّهداء كلّهم كما كان حمزة سّيّدَ الشّهداء، ويتوّج هذه المشيخة خليل مطران بقوله:

أبيتَ والسّيفُ يعلو الرّأسَ تسليمًا

وجُدتَ بالرُّوحِ جود الحرِّ إنْ ضيما

ويجمع إلى الإمامةِ الشّهادةَ العزُّ عزُّ الدّين القسّام الذي استشهد في أحراش يعبد كي يشقّ طريق الشّهادة لرفاقه عبد الرّحيم الحاج محمّد، وفرحان سعدي، وعبد القادر الحسينيّ، وآخرون... وإبراهيم طوقان ينظر من سُودٍ صوادقَ في الشّهادة ليصف وجه العزّ بقوله:

أيّ وجه تهلّلا

يَرِدُ الموتَ مقبلا

وهنا يفتح الباب الثّاني بموج جديد وفوج أنيق من الخالدين، ويبدأ هذا الفصل بتوطئةٍ حيث يقول: «إنّ الشّعر الذي توافر لنا حول هذا النّضال المستمرّ بعد حرب الـ ٤٨ يمثّل موقفًا ثقافيّاً كبيرًا في حركة الشّعر العربيّ الحديث حيث يشكّل بالرّغم من تنوّع مدارسه وتعدّد اتّجاهاته شعر مقاومة يسجّل حالات الغضب، والثّورة، والشّهادة، في النّصف الثّاني من القرن العشرين وهو زمن وقعت فيه أحداث قوميّة هائلة منذ الـ ٤٨، ولعلّ ثورات مصر، والجزائر، وفلسطين، وعدن هي الأبرز شعبيّاً وتاريخيّاً».

وهنا يبدأ بالتّساؤل: «أيّ شعر يمكن أن ينهض بعبء التّعبير عن مأساة بهذا الحجم؟ وأيّ ذاكرة؟ بل أيّ لغة يمكن أن تختزن من المشاهد ما يساعدها على التّذكّر والتّعبير؟ نطرح هذه الأسئلة لأنّنا نقف أمام هذا الجيل الجديد من الشّهداء الذين يصل عدد ينابيع دمهم إلى ما يقرب خمسة وأربعين ألف نبع! لذلك جاءت القصيدة دون مستوى الحدث، وقد نجحت في التّأريخ له، وأخفقت في منحه «لحن الرّجوع الأخير» بمستوًى فنّيّ عظيم يليق بالمأساة:

تمرّ اللّيالي وهو يَدْمي فلم نجد له

مرهمًا منهم سوى العنف والباس»

ثمّ نصل إلى مصر، تلك التي في خاطر الكركيّ، حيث يصل صوت صلاح عبد الصّبور وهو يرسم صورة المدافن مشيرًا إلى الحسّ الفلسفيّ في التّوحّد بين رفات الشّهيد وتراب الوطن:

وفي المدافن التي تنام في الحقول غيّبوه

لم يبق من هذا الوسيم غير حفنة تراب

تراب مصر

تعود كي تنام في حضن التّراب

تراب جدّنا وأهلنا تنام، تنام في سلام

وهنا يصعد بنا الكركيّ إلى صرخة السّيّاب

التي خاطب بها جموع المتآمرين على مصر بقوله:

يا حاصد النّار من أشلاء قتلانا

منك الضّحايا وإن كانوا ضحايانا

وتتّصل الرّوح بين شهداء الـ(٦٧) ومن على قِبْلَةٍ من مؤتة في معركة الكرامة يحلّق بنا مرّة أخرى برفقة حيدر محمود في لوحته المضيئة، إذ يقول:

ربّ إنّ هذا الماء

من دم جندك الأبرار

فلا تجعله نهبًا للأعادي

اجعله في جوف الأعادي نار

وهنا يستعيد مقطوعة شعبيّة «**هبّت النّار والبارود غنّى . . . فالفضاء الرّحب عطرٌ . . . والثّرى الطّاهر «حِنّا»**». وتبقى الرّوح حاضرة تحت سنّ قلم الكركيّ عند صقر الكنانة -عبد المنعم رياض- وهنا سليمان العيسى ينكز لنا الحرف:

بيضاء شامخة الأسى سيناءُ

تُسْقى بجرحك روعة وتضاءُ

حتّى نصل إلى حرب تشرين ١٩٧٣م: اسق العطاش... وبقلم محمّد إبراهيم أبو سنة «رؤيا الشّهيد» وهنا توقيت الغروب يلتقي في لحظة العشق بتوقيت الشّروق:

وابتدأنا من حقول الياسمين

من قرى مصر البعيدة من دمشق

وهنا يعبر بنا الكركيّ إلى شهداء الثّورة والانتفاضة، وبدأ الحديث عن فلسطين من النّهرِ الثّالثِ للعراقِ الجواهريِّ الكبير عندما قال:

جلّ الفداء وجلّ الخلد صاحبه

ضاق الفضاء وما ضاقت مذاهبه

وهنا يفرد لنا فصلاً موقوفًا على نموذج جديد للشّهادة، وهو يحيى عيّاش وكيف استطاع هذا الفتى أن يكون موضوعًا عند عبد الرّزّاق الرّبيعيّ في:

عليك سلام الأرض الميمونة

يومَ كبّرتْ على ثوب العيد

ويوم تصدّرتَ الذّبح

ويوم بكى الشّيخ المحزون (على يحيى

وا أسفاه!

ويمتدّ الأسف نحو لبنان شقائق الجنوب والنّعمان، ويقفل الباب بعرس قانا: الشّهادة والقيامة وكيف أرتال الشّهداء تغادر تحت وطأة الغازي.

تلك هي محاولة نظرٍ في (حماسة الشّهداء) كما وردت في كتاب الدكتور خالد الكركيّ، وكيف حاول أن يجعل من الموت مادّةً تحفيزيّة لا خطبًا منبريّة ترهيبيّة، مؤكّدًا غير مرّةٍ على قيمة الشّهادة بمعناها العالي السّامق الذي أراده ربّ العزّة في قرآنه.



مراجعة كتاب «في زمن الموجة الشّرقيّة» للدكتور عيد عبد الله الدحيات

(نشر **Hesperus Press**، لندن، ٢٠١٢م)

كَتَبَها في مجلّة (**ALJADID**) (مجلّد ١٧، عدد: ٦٤)

حَنّا سعادة، وتَرْجَمَها: جعفر عبابنة*

ثمّة قولٌ مشهور باللّاتينيّة أُثر عن الطّبيب اليونانيّ أبوقراط الذي عاش بين سنتَي (٤٦٠) و(٣٧٧) قبل الميلاد، يمكن ترجمته على النّحو الآتي: الفنُّ طويل الأمد، والحيويّة قصيرة، والمناسبة متهوّرة، والتّجربة مُرْعبة، والحكم على الأشياء عسير.

ويحاول عيد عبد الله الدحيات في هذا الكتاب الذي أسماه: «في زمن الموجة الشّرقيّة» أن يسبر أغوارَ كلِّ عنصر من عناصر القول الثّمين السّابق، جاهدًا أن يظهر لنا أنّ فنّ الأدب العظيم لا يعرف حدودًا ولا قيودًا، ويتغلغل في كلّ مظاهر الحياة، ويخصّ كلّ إنسان.

إنّ فنّ الأدب، ربيب البشريّة، يخترق كلّ الثّقافات ويؤثّر فيها ويدوم أطول منها؛ وهو ما عَبَّر عنه بفطنةٍ خارقة اللورد بايرون (١٧٨٨- ١٨٢٤م) شعرًا في «دون جوان»، إذ قال:

...لكنّ الكلمات أشياء حقيقيّة. وقطرةُ حبرٍ واحدة تنزل كالنّدى على فكرة من الأفكار كفيلةٌ بأن تجعل الآلاف بل الملايين يفكّرون. ومن الغريب أنّ أقصر حرف يستخدمه الإنسان بدلاً من خطاب كامل يمكن أن يخلق رباطًا أبديًّا بين الأجيال.

وليست الشّدائد التي يَبْتَلي الكِبَرُ بها رجلاً هَشّاً ضعيفًا بذات بال، إذا ما خلَّدَهُ

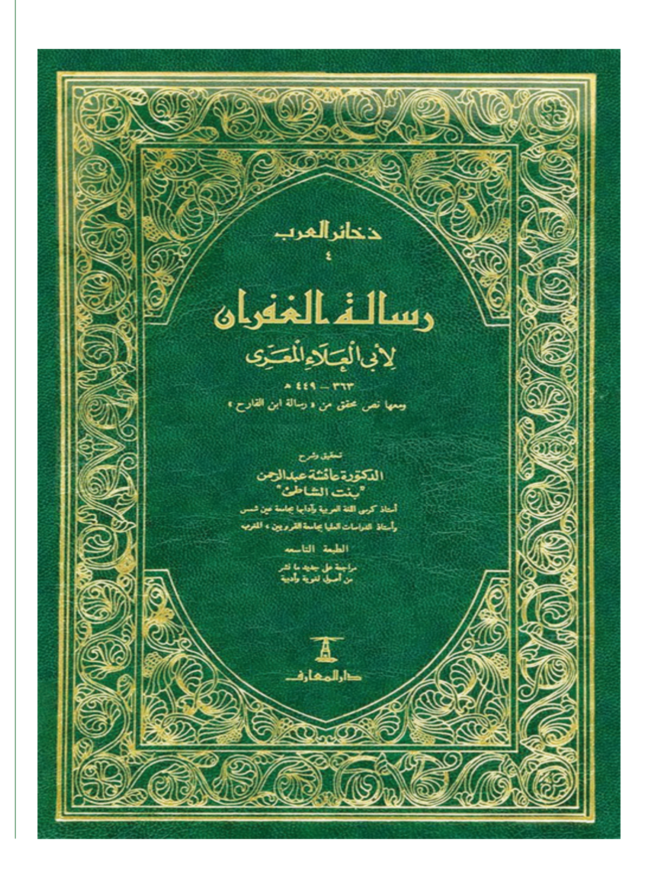
* عضو مجمع اللّغة العربيّة الأردنيّ.

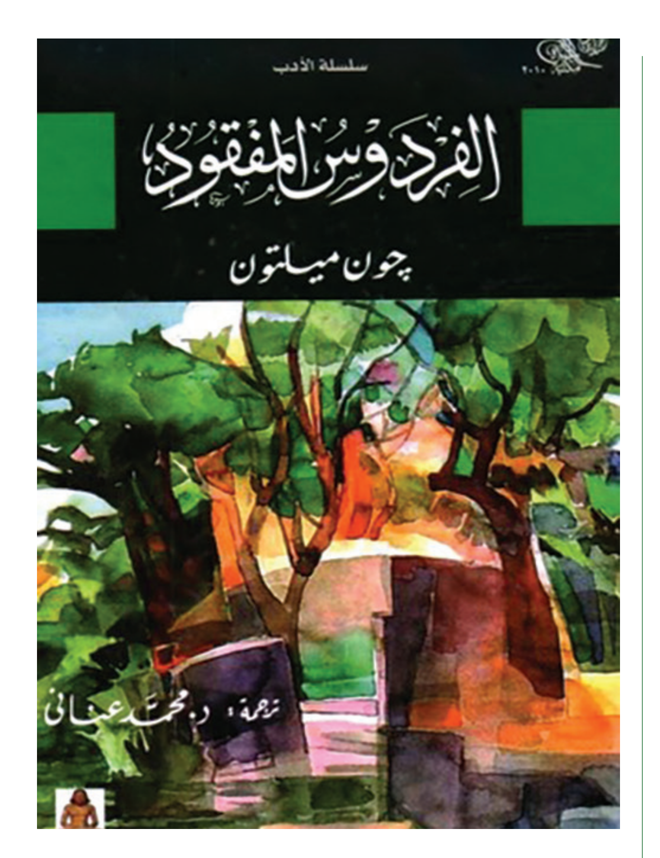
القِرطاسُ -ولو كان باليًا مثل قرطاسي هذا- وخَلّدَ قَبْرَهُ، وكلَّ ما له شأنٌ به.

إنَّ الأدب هو الأكثرُ قابليّة للذّيوع والانتشار من سائر الفنون، ولكنّه أيضًا الفنُّ الوحيد الذي يتطلّب ترجمة؛ وهنا تكمن المعضلة الكبرى؛ لأنّ التّرجمات كما يقول المثل الفرنسيّ الشّهير هي مثل النّساء: حين يَكُنَّ جميلاتٍ يَكُنَّ غيرَ وفيّات، وحين يَكُنَّ وفيّات لا يَكُنَّ جميلات.

وفي ظلّ هذا المدّ والجزر في الآداب العالميّة يقرّر عيد الدحيات مؤلِّفُ الكتاب أنّ ثمّة فكرة إنسانيّة عامّة تنتظمها، وهي تلك الرّحلة الخياليّة إلى العالَم الآخر.

ويُبيّن لنا المؤلِّف، حقّاً، أنّ هذه الفكرة المُلِحَّةَ تتخطّى العصور التّاريخيّة بسهولة ويسر؛ فمن «الأوديسة» لهوميروس إلى «الإنياذة» لفيرجل، والقرآن الكريم، و«رسالة الغفران» لأبي العلاء





المعرّيّ، و«الكوميديا الإلهيّة» لدانتي، و«الفردوس المفقود» لميلتون -ظلّت هذه الفكرة حاضرة متواترة.

وقد تناول المؤلِّف ملحمة «الفردوس المفقود» لميلتون، وهي أعظم ملحمة أدبيّة في اللّغة الإنجليزيّة تناولاً دقيقًا، ودرسها دراسةً علميّة أمينة، جاعلاً همَّه الأكبرَ أن تتبوّأ مكانها الصّحيح في تاريخ الأدب.

ولقد دَرَسَ هذا المؤرِّخ الأدبيّ، بتجرّد تامّ، تأثيرَ النّهضة الثّقافيّة الإسلاميّة في سوريا وإسبانيا إبّان العصور الوسطى، ولا سيّما تأثيرها في رائعة ميلتون «الفردوس المفقود».

وقد تناول بعد ذلك تأثير ميلتون في الأدب العربيّ الذي تلا رائعته هذه. واختتم نقاشه بالحديث عن الشّاعر العراقيّ جميل صدقي الزّهاويّ وقصيدته الطّويلة المسمّاة (ثورة في

The Poet Milton and Islam: A Tale of Mutual Influence

Once Upon the Orient Wave
By Eid Abdallah Dahiyat
Hesperus Press, London, 2012

BY HANNA SAADAH

The *Aphorismi* by the ancient Greek physician, Hippocrates of Kos, (B.C. 460-377) gave us this precious Latin saying – *Ars longa, vita brevis, occasio praeceps, experimentum periculosum, iudicium difficile* – which translates into "Art is long, vitality brief, occasion precipitous, experiment perilous, judgment difficult." What Eid Abdallah Dahiyat tries to do in his book "Once Upon the Orient Wave," is to delve into all segments of the above aphorism in an effort to show us that great literary art knows no boundaries, intermingles with all aspects of life, and belongs to everybody.

Literary art, the fauna of humanity, permeates all cultures, influences them, and outlasts them – as Lord Byron (1788-1824) so aptly versed it in "Don Juan":

But words are things, and a small drop of ink,
Falling like dew, upon a thought, produces
That which makes thousands, perhaps millions, think;
'Tis strange, the shortest letter which man uses
Instead of speech, may form a lasting link
Of ages; to what straits old Time reduces
Frail man, when paper - even a rag like this -
Survives himself, his tomb, and all that's his.

Of all the arts, literature is the most immediately inclined to dissemination, but is also the only art that requires translation, and 'there's the rub.' For as the French proverb declares "*Les traductions sont comme les femmes. Lorsqu'elles sont belles elles ne sont pas fidèles, et lorsqu'elles sont fidèles elles ne sont pas belles,*" which translate into – "Translations are like women; when they are beautiful, they are not faithful and when they are faithful, they are not beautiful." In this ebb and tide of world literature, "the idea of an imaginary journey to the other world is a universal theme," states the author, E. A. Dahiyat. Indeed, he shows us that – from Homer's "Odyssey" to Virgil's "Aeneid," to the *Quran*, to Al-Ma'arri's "Epistle of Forgiveness," to Dante's "Divine Comedy," to Milton's "Paradise Lost"– this recurrent theme transcends historical epochs with remarkable facility.

Milton's "Paradise Lost," the greatest literary epic in the English language, is subjected to meticulous, scholarly study by the author, with the noble intention of placing it into proper historic prospective. Without favoritism, this literary historian examines the influence of the Islamic cultural renaissance in Syria and Spain during the middle-ages, and on Milton's opus magnum, "Paradise Lost." He then examines the influence of Milton on the Arabic literature that succeeded him and concludes with the Iraqi poet, Jamil Sudqi Az-Zahawi's long poem *Thourah*



"Untitled" by Yasir Safi

fil Jahim ("A Revolution in Hell"), which, he claims, "is probably the most courageous poem in Arabic literature and the one which bears the strongest similarities to Al-Ma'arri's *Risalat-ul-Ghfuran* and Milton's 'Paradise Lost'."

"Once Upon the Orient Wave" is a scholarly work, suffused with enlightening historical facts, circumspect in its assessment of literary exchanges, profound in its analysis of intellectual dimensions, and terse in its presentation (only 136 pages). It represents a powerful expose of the sublime yearnings of the human soul throughout recorded history. For the literati with analytical minds and citizen-of-the-world spirits, it is *necessaria libro pro bibliothecis* (an indispensable book for their libraries).**AJ**

A Voice of the Voiceless

Vocabulary of Silence
By Veronica Golos
Red Hen Press, 2011

BY JOSEPH SILLS

In "Vocabulary of Silence," Veronica Golos brings the atrocities of war and violence from Iraq and Palestine, as well as the drug wars in northern Mexico, to the reader's consciousness in a powerful yet respectful way, avoiding heavy-handedness and accusations. The book is divided into two parts that both address these heavy topics, but in very distinct ways. Part I opens with a dream depicting war-torn Baghdad, followed by protests of the horrors of Abu Ghraib and Ciudad Juárez. Golos focuses on giving a voice to the voiceless – prisoners of war, children, and abused women factory workers – striking a delicate balance between the importance of using words to express the complexity of their pain and the recognition that in the face of unspeakable acts, only silence fully dignifies. Part II, titled "Broken", unfolds at a starkly faster pace, alternating between a series of seven short "veil poems" examining the veil's effect on the wearer and the beholder – an issue to which the author has devoted much of her work – and seven longer poems examining the responsibility we all bear in perpetuating violence, challenging the reader's notion of assumed innocence. "Vocabulary of Silence" gathers threads of different accounts of war and artfully weaves them together, then follows by taking them apart to reveal the nuances of the individual's experience.**AJ**

النّصّ الأصليّ

الجحيم) التي يُزْعَمُ أنّها ربّما كانت أجرأ قصيدة في الأدب العربيّ، لما تفرّدت به من سماتِ شَبَهٍ قويّة برسالة الغفران للمعرّي، والفردوس المفقود لميلتون.

إنّ كتاب «في زمن الموجة الشّرقيّة» عملٌ علميٌّ يزخر بالحقائق التّاريخيّة المستنيرة، ويتّسم بالحذر في تقييمه للتّأثيرات الأدبيّة المتبادلة، وبالإيجاز الجامع (١٣١ ص، فقط)، ويقدّم وصفًا ضافيًا لتطلّعات النّفس البشريّة السّامية عبر التّاريخ الموثّق.

إنّه كتابٌ لا غنى عنه في مكتبة كلِّ مثقّف ذي عقلٍ تحليليّ، وكلِّ معنيٍّ بشؤون العالم قاطبة.


ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا
بل احياء عند ربهم يرزقون

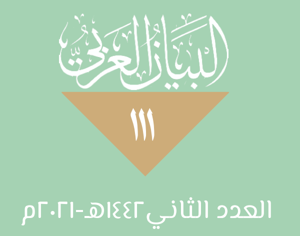
شعر

لِمَنْ تكتب الشّعر؟

إبراهيم الكوفحيّ

بِوُدِّكَ هجرُ العَيْشِ لولا...

حسين عدوان





لمَنْ تكتبُ الشّعر؟

إبراهيم الكوفحيّ *

(١)

أُصيخُ..

إذا ما فرغتُ من النَّصّ،

أو لَمْ يزلْ

بعدُ سطْرٌ أخيرْ

لصوتٍ...،

يُعذّبُني

آخرَ اللّيلِ

قبلَ الأذانِ

يهزّ كياني:

لِمَنْ تكتبُ الشّعرَ؟

مات الشّعورْ

فما هذه مُدُنًا

بل قبورْ

أغرّكَ منها عماراتُها

ناطحاتُ الجَهامْ

وأين الأنامْ

(شواهِدُ) هذي،

* أستاذ الأدب والنّقد الحديث- الجامعة الأردنيّة.

فما تحتُ

غيرُ بقايا من النّاسِ

غيرُ غُبارٍ نثيرْ

لِمَنْ أنتَ تُنفقُ

هذا المِدادَ النّجيعيَّ؟!

ارفقْ بنفسِكَ

قبلَ فواتِ الأوانِ

أتسقي الصّخورْ

وترجو طلوعَ الزّهورْ!

سُدًى

تضحياتُكَ في ذا الزّمانِ

سُدًى..

لن يُفيقَ الأُلى

تحتَ هذي الرِّجامْ

وهل يسمعُ الميّتونَ..

الكلامْ؟!

(٢)

أجَلْ

يسمعُ الميّتونَ

نشيدَكَ

رغمَ الظّلامْ

وأعرفُ منهمْ كثيرًا..

كثيرْ

صَحَوْا..،

يَنفضونَ غُبارَ المنامْ

وَتِيهَ الدّهورْ

يقولون: تلك السّبيلُ..

ويستأنفونَ المسيرْ

فمِنْ ثقْبِ ناي

بكفَّيْكَ

ينسابُ نهرُ الحياةِ..

على المُدُنِ المُقْفراتِ

ويضحَكُ شُبّاكُ نورْ

فأمسِكْ (بصُورِكَ)

منتَصِبَ الرّوحِ

وانفخْ

أناشيدَ (يومِ النّشورْ)

بِوُدِّكَ هجرُ العَيْشِ لولا...

حسين عدوان *

بِوُدِّكَ هجرُ العَيْشِ لولا اعتِيادُهُ
ولولا المُنى تجري إليها جِيادُهُ

ولولا انتِظارٌ كُلّما عَسْعَسَ الدُّجى
لصُبحٍ نأى عن مُقلَتَيْكَ مَعادُهُ

تُسائِلُني ميّادةُ اليومَ عن غَدي
متى يتَسَنَّى في يدَيَّ قِيادُه؟!

وفي أيّ أرضٍ تُنزِلُ النّفسُ ثِقلَها؟
وحتّى مَتى يُضْني الفُؤادَ سُهادُهُ؟

* معلّم وكاتب محتوى.

ألا فاعلَمي ميّادةَ العمرِ أنّني يُقرّبُني من كُلِّ مَجْدٍ بِعادُهُ

وأنّي إذا ما استَيْسَرَ النّاسُ مَسْلَكًا سَلَكْتُ الذي تَفْري النُّفوسَ وِهادُهُ

وأرسلتُ طَرفي نحوَ كلِّ بعيدةٍ وطاردتُ ما لا يُستطاعُ طِرادُهُ

أَهــيمُ أنــا بالأوّلــينَ أراهُــمُ على كلِّ ما يَفْنى ويَبْقى رَمادُهُ

على أُمَّــةٍ كانَتْ مَـدارًا لشاعرٍ يرى أنّ أعلى الفرقدينِ امْتِدادُهُ

وأنَّ عُيونَ النّــاسِ طُرًّا عيــونُهُ وأنَّ السّــماواتِ الطِّباقَ عِمادُهُ

يُجـنِّحُ بينَ الـنّارِ والـماءِ قلبُهُ ومِن ضَفّةِ الأضدادِ يُسقى مِدادُهُ

منـازلُهُ لا حـدَّ يشـطُرُ بيـنها وكُــلَّ بــلادٍ يشـتهيها بِـلادُهُ



مجمع اللغة العربية الأردني

ص.ب (١٣٢٦٨) عمان (١١٩٤٢) الأردن
هاتف: ٠٠٩٦٢٦٥٣٤٣٥٠٠
ناسوخ (فاكس): ٠٠٩٦٢٦٥٣٥٣٨٩٧
البريد الإلكترونيّ:
albayan@ju.edu.jo